شمس أندروميدا

إيمان الشاذلي



شمس أندروميدا

إيمان الشاذلي

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 23532 / 2019

التوزيع

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

***

اهداء

ذات يوم، صارع الليل نهارًا.. فسرق الشمس،

ومن يومها والكون ظلام ..

تقول نُسِيَت؟ .

وكيف لشمسٍ أن تُنسى؟ .

إليها ...

****

ها أنت هُنا من جديد.. يبدو أن رحلتنا السابقة أعجبتك أو دفعك الفضول إلى عوالمي ليس إلا ..

لا يهُم أيها القارئ العزيز.. المهم أنك هنا .

كما أخبرتك مسبقًا فأنا لا أجيد كتابة المقدمات.. فاستمتع .

ولكن مع ملحوظة صغيرة ..

إن احتك واقعك بكلماتي؛ فلا تقل الكاتب يقصد كذا..

فقط استفت قلبك .

****

الفصل الأول

بإحدى المطارات الدولية وقف رجل أربعيني مرتدي بذلة كلاسيكية أمام أحد الموظفين لتفتيش الحقائب والتأكد من هويته..

- من فضلك جواز سفرك.

أومأ برأسه ثم ناوله إياه، دقائق عابرة بين تأمل المعني وانتظار صاحب الجواز، رفع وجهه إليه ثم حدثه:

- ما مصدر هذا الجواز؟، من أي دولة أنت؟ .

- كما ترى .

- أرى ماذا؟ .. سيدي من فضلك انتظر هنا لدقائق.

لحظات من الانتظار تبعها التفاف مجموعة من أمن المطار حول الرجل، تم نقله إلى إحدى غرف التحقيق للنظر في أمر جواز سفره، أمر أحد ضباط المطار الكشف عن أوراقه..

- صحيحة مائة بالمائة ..

- كيف؟ ، لا وجود لمثل هذه الدولة على الكوكب .. كيف صعد على متن الطائرة؟ .

بعد ساعات من التحقيق أمرت الجهات المعنية بحجز الرجل بواحد من الفنادق التابعة للمطار حتى البت في أمر أوراقه .

تم عزله بغرفة بالطابق الخامس مع حراسة مشددة، وبعد مرور عدة ساعات .

- أين الرجل؟ .. من المستحيل الهرب من هنا ، من أي مكان قد فرّ.

***

الكون واسع أنت لا تساوي ذرة على ظهره.. بَشَرِيٌّ من ضمن ملايين البشر على أرض قد لا تُرى بالعين المجردة إن تأملتها من هناك، حيث الفضاء المترامي الذي يحمل الكثير والكثير من الأسرار.. أسرار يسعى ابن آدم لاكتشافها مذ أن خلق الله فضول المعرفة بين جنبيه..

نضال.. شاب ثلاثيني متوسط الطول والوزن، يمتلك لحية خفيفة وشعر قصير يميلان إلى السواد، تتناغم بشرته الخمرية مع عينيه الخضراوين فتنتج بعض الوسامة.. رائد فضاء مصري؛ فرد بإحدى الفرق التي وكلتها ناسا للبحث في أمر أحد الكواكب المكتشفة حديثًا والذي - على حد ما توصلوا- يشبه الأرض بكثير من الخصائص..

اكتشاف علمي قد يحدث ثورة في مستقبل قريب خاصة مع توقع علماء الجيولوجيا نقص

الموارد المائية، وذلك أمر قد ينشب على غِراره حروب مميتة.

أطلقت على مكوك الفضاء اسم *تشالنجر* تيمنًا بذاك الذي انفجر في الجو بعد 73 ثانية من انطلاقه في الثامن والعشرين من يناير سنة 1986.. وقد تسبب ذلك في موت كل من عليه.

جلس نضال أمام إحدى الشاشات المتوفرة بالمكوك لرواد الفضاء حتى يتمنكوا من التواصل مع ذويهم يحدث زوجته؛ فهما حديثي عهد بالزواج..

- اشتقت لك تعلمُ ذلك؟ .

- وأنا أيضًا.. قريبًا ستنتهي الرحلة وسأعود إليكِ.

انكسرت نظراتها، شعر بذلك فبادر متحدثًا:

- تعلمين ، هذه الشاشة اللعينة لا تستطيع منعي من رؤية أي مصاب ألَمَّ بك.. حدثيني ماذا هناك؟.

ابتسمت لعذوبة حديثه، أجابته وكأنها تبحث عن الأمان في بعض كلماته:

- لا تغادرني الأحلام السيئة بشأن رحلاتك هذه، أحيانًا أتمنى لو لم تكن هذه مهنتك.

انطلقت قهقهاته يتلاعب بها:

- أهذا حب؟ .

- لا هذا استظراف.

أجابت في غيظ يشوبه السخرية فأكمل قهقهاته ثم أنهى حديثه معها بشيء من اللطف.. ففي النهاية هي امرأة تحتاج إلى الأمان وإن كان ممزوج بالكذب في بعض الأحيان.. هو معرض للخطر بالفعل.. الرحلة لن تنتهي في القريب .

نهض من مكانه يعوم في الهواء، فالعيش على متن مكوك يجعل منك سمكة بشرية، لا جاذبية تمكنك من السير على قدميك، حركتك عبارة عن سباحة.

لا فرق بالأعلى بين صباحٍ وليلٍ فالمكوك يقطع المسافات في ظلام حالك.. والرواد بالداخل في انتظار وترقبٍ ودراسة على تواصل مع المقر الرئيسي إن حدثت إي تغيرات.

ناداه أحد زملائه لتناول الطعام، وما أن سقطت عيناه عليه حتى تأمله في حزن .. فهو عبارة عن معجون في عبوات تشبه معجون الأسنان وبعض الأطعمة التي يتم معالجتها حراريًا للحفاظ عليها.. أطلق تنهيدة عميقة ثم حدثهم:

- تعلمون يا رفاق، كلما تأملت هذا الطعام طرق ذاكرتي ساندويتش البرغر، ثم نادتني شرائح البيتزا الغارقة في الموزريلا.. أنا حتى أشتاق لكوب شاي فتلة، ما هذا يا إلهي ماذا

نأكل منذ أشهر على هذا المكوك.. متى سنعود إلى الأرض؟ .

ضحكت إحدي زميلاته ثم حدثته:

- تعلم أن هذا النوع من الشاي قد يعرضك للإصابة بالسرطان؟.. مركب الدايوكسين المغلف به الفتلة يصبح مادة مسرطنة عند 70درجة مئوية .

- أعلم.. ولكني مصري .

يسخر من الأزمات.. يبدو وكأن الأمر متوارث بالجينات، هذه عادتهم أينما كانوا .

***

عبدالله شاب جامعي في مقتبل العشرين، ترك مصر لأسباب تتعلق بأفكاره بعد أن تم فصله من الجامعة.. رأى أن لا مفر من تركها ومحاولة البدء من جديد في أي دولة أجنبية أخرى، فما العمل إن كان موطنك لا يريدك.. ما العمل إن كان عقلك المستنير هو سبب نكساتك وخيباتك، ما العمل إن كنت الغريب بين المعاتيه فيرونك المعتوه بينهم فقط لكونك ترى الأمور من الأعلى، أو لأنك تشبعت بالحقيقة التي تعجز جوارحهم المحدودة إدراكها.

يعمل نادلًا بواحد من المطاعم.. ينهي عمله ثم يعود يوميًّا إلى شقته المتواضعة بأحد الأحياء المتوسطة بولاية إنجلترا البريطانية، يشاركها مع صديق من المغرب العربي يُدعى سلمان.

- حزمت أمتعتك؟.

- نعم.. شهر وأعود إليك، تعلم . عليّ أن أرى عائلتي.

ابتسم إليه ثم حدثه بصوت شَجِن:

- سأفتقدك، لا تتأخر علينا.. وسلاماتي لكل أهل المغرب.

سلمان صديق مقرب له، فهو الوحيد في المنطقة الذي يتحدث العربية.. أول من تعرف عليه عندما خطت قدماه هذه البلدة، ساعده بكل ما استطاع حتى في أن يجد عمل..

عاد إلى المغرب تاركًا عبدالله مفرده تطرحه الأفكار أرضًا.. يصرخ الحنين بين جنبيه إلى أهله وأصدقائه ولا خيار، لا يمكنه العودة والعالم بهذا الحال المؤسف هناك.

بات ليله وحيدًا لم يذق طعم النوم، وفي الصباح تناول قدح قهوته على أمل أن لا يظهر على عينيه التعب، بدأ عمله المعتاد.. استوقفته زميلته الإنجليزية *سارة*.. نادت اسمه بصوت رخيم فالتفت بذهن مشتت.

- ما بك؟ .. أنت بخير؟ .

أجاب بابتسامة وقد أومأ برأسه، لم تقتنع..

- أنت متأكد؟ .

تنهد ففهمت إلى ما يرمي، حاولت حينها التخفيف عنه.

- ما رأيك أن أدعوك على العشاء الليلة؟..

لم يعرف بماذا يجيب فهذه المرة الأولى التي يحدث أن تطلب منه ذلك، يعلم أن الأمر عادي هنا.. حاول التملص بشيء من اللطف لكنه لم يقدر مع إصرارها، وافق في النهاية .

- أعلم أنك تعمل اثنتي عشرة ساعة يوميًا، أنا أعمل وردية واحدة فقط.. سأتجهز وأنتظرك بعد أن تنهي عملك .

***

في التاسعة والنصف أنهى عمله، ارتدى معطفه وقد هم بمغادرة المطعم ليجدها تنتظره.. خصلات شعرها الشقراء تداعبها نسمات الليل الباردة.. منكمشة داخل معطفها الثقيل الذي بدا وكأنها ترتديه فوق ثوب ما، ما أن لمحته حتى لوحت له مبتسمة ثم هرولت إليه بنعلها المرتفع الذي تسمع صوت ارتطام كعبه بالأرض أثناء سيرها السريع.

وقف متجمدًا فلم يتوقع كونها بالفعل ستنتظره أمام المطعم بعد انتهائه، بدا أنها مُصرة على أن تعلم مُصابه أو محاولة التخفيف عنه.. لم يكن يعلم عنها الكثير.

- هيا ..

صمت هنيهة يلملم شتات عقله..

- إلى أين؟ .

- أنا سأرشدك الليلة..

رافقها فصحبته إلى واحد من المطاعم التي تميل إلى الطابع الكلاسيكي الهادئ، سحبت كرسيها ثم جلست عليه.. تبعها بسحب كرسيه هو الآخر، تأملته بابتسام وهو يتحاشى النظر لها.. استطردت:

- نأكل أولًا أم نبدأ بالحديث أم نتناول الطعام ونحن نتحدث؟ .

أجاب بتوتر مصحوب ببسمة خفيفة:

- كما تريدين .

- إذن لنطلب الطعام ونتحدث ونحن نأكل.

نادت النادل وكل منهما طلب الطبق الذي يريد تناوله، دوّن طلبيهما وأنصرف.. بدأت بالحديث تُعَرِف عن نفسها.. تعلم أنه لا يعرف عنها أي شيء سوى كونها زميلته

بالمطعم..

- تعرف ما عمري؟.

- لا.. عذرًا.

ابتسمت إليه، ضمت كفيها وقد أسندت ذقنها؛ نظرت صوب مقلتيه حتى ازداد توتره.

- لا بأس، أعلم أنك لا تعرف سوى اسمي رغم أننا نعمل بنفس المكان مذ فترة.. عمري تسعة عشر عامًا وأنت اثنان وعشرون أليس كذلك؟ .

لم يُجب.. بدا متعجبًا من كونها تعرف عنه مثل هذه الأمور، أكملت:

- أنا أعرف عنك بعض الأشياء كأين تسكن.. من أين أنت، حسابك على الفيس بوك.. أشياء من هذا القبيل..

صامتًا لا يضيف أي تعليق.. يستمع إليها وهي لا تكف عن الكلام:

- أدرس الفيزياء.. عملي بالمطعم حتى أستطيع سداد مصاريف جامعتي، ما المجال الذي كنت تدرسه قبل أن تأتي إلى هنا؟.

- إدارة الأعمال..

بدا عليها الحماس لذلك..

- هل أنهيت دراستك الجامعية؟.

عاد لصمته.. تفرست كونه لا يريد الحديث عن الأمر، تناولا العشاء.. سارة سعيدة بالكلمات القليلة التي يلقي بها عبدالله إليها وبالمقابل هي تروي له الكثير.

أما عنه فلا يبدو عليه السعادة ولا حتى الحزن، أمر عادي يؤديه لأنه اضطر لذلك.. انتهى من الموعد ثم خرجا من المطعم يسيران سويًّا بأحد الشوارع، ودعته بعد مسافة مستقلة سيارة أجرة.. كانت سعيدة.

انطلقت السيارة حتى اختفت عن أنظاره.. تنهد فخرج ذاك البخار من فمه، وضع يديه في جيب معطفه ثم أكمل الطريق سيرًا إلى شقته.

وضع المفتاح بالباب، حركه يمينًا ويسارًا حتى سمع صوت فتحه.. دخل إلى الشقة.. ظلام دامس يغطي كل شيء، أغلق الباب خلفه وقبل أن يهم بتشغيل الإضاءة أيقظ أسماعه حركة ما.. انقبض قلبه، حاول التوازن في محاولة لإدراك زر الإضاءة.. وصل إليه بيد مرتعشة، تأمل الشقة بعينيه.. صاح بصوت مهزوز:

- من هناك؟ .. من بالداخل؟ .

***

استيقظ نضال بعد أن طال نومه يفك الشريط حول جسده، فرائد الفضاء يضطر لربط نفسه بينما هو نائم حتى لا يتحرك فيصطدم بالمعدات، دخل إلى المرحاض وما أن انتهى حتى ضغط زره؛ المرحاض هناك عبارة عن جهاز يعمل بالقوة الماصة للفضلات.. استحم عن طريق مسح جسده بمنشفة مبللة ثم غسل شعره بغسول waterless لا يحتاج للماء.

وقف على مشاية رياضية ثم بدأ بالجري.. مضطر لذلك فانعدام الجاذبية في الأعلى قد يؤثر على العظام والعضلات لقلة استخدامها، كما أنه يؤثر على الأوعية الدموية والقلب ويجب مقاومة ذلك بالرياضة.

يوم مكرر ممل بشكل ما.. يحدث زوجته تارة يتابع المقر أخرى.. يملأ وقته أحيانًا بالقراءة ولا جديد..

بينما هو غارقٌ بكتاب اهتز المكوك بشكل ملأ الجميع بالرعب أحسوا بتوقفه، سأل أحدهم:

- ماذا يحدث؟ .. توقفنا .

- يبدو وكأنه عطل ما .

نهض نضال من مكانه ثم رافق أحد زملائه المختصين، بدأ الأخير بالكشف على المحركات عن طريق شاشة إلكترونية يتأملها بعقل يقظ.. في البداية لم يَعِرْ الأمر الأهمية الكبرى فمثل هذه الأشياء قد تحدث وهم على دراية كاملة بكيفية التعامل معها.. مر بعض الوقت، وكأن الأمر أخذ منعطفًا آخر فالتوتر بدأ في احتلال قسماته.. التفت يحدثه:

- هذا غير معقول أهذه لعنة؟ .. المحركات توقفت جميعها.. أهناك قوة خفية احتلتها في آن واحد ..

أجاب بقلة حيلة:

- ماذا علينا أن نفعل؟ ، هذه ليست غابة لنضل الطريق.. إنه فضاء واسع وقد قطعنا الكثير لن يستطيعوا الوصول إلينا إلا ونحن أموات.

التقط نضال راسل الإشارات في محاولة لبث إشارة للمقر الرئيسي بالوكالة.. رسالة مضمونها *جميع المحركات تعطلت.. نحن في خطر، إلى المقر الرئيسي.. جميع المحركات تعطلت*

علم الجميع بالحدث وتصدر الخوف المشهد فلا أحد يعلم سبب العطل.. ليس هنالك حتى مبرر منطقي واحد لذلك، أمر مبهم يدور .

بلغت القلوب الحناجر، أفكار مرعبة تسلقت عقولهم فكل منهم يفكر بعائلته.. بنفسه، ماذا عليهم أن يفعلوا؟ .. أنت وحيد بفضاء واسع سيمر الوقت وليس هنالك إلا إياك وسبعة أشخاص، سيشاهد كل منكم الآخر وهو يقضي نحبه، من سيموت أولًا .. من سيبقى

الأخير ، أفكار مشتركة تدور برأس الثمانية ونضال صامت يحاول التفكير، حدثهم:

- هناك حل، بالتأكيد هناك حل.. لا تفقدوا الأمل ، سأحاول بث إشارة أخرى، فليتحرك الفريق الفني للكشف مرة أخرى على المحركات.. ربما هناك عطل مخفي .

عاد لمحاولة بث إشارة جديدة، البث يخفت حتى كاد ينعدم.. قلبه كاد يتوقف؛ همس إلى نفسه *هذا ليس طبيعيًّا.. أمر غريب يدور هنا *، قبل أن ينهي تمتماته الغاضبة اهتز المكوك هزة قوية أسرع جميعهم إلى مكان وقوفه.. فتح شاشة تلتقط صور متحركة للأوضاع خارج المكوك .

ظلام حالك، لاح شيء لامع هناك يتمايل كشريط من النايلون، ما هذا الشيء؟ .. يتحرك ويشق الظلام وكأنه ضربة سيف، الجميع متأملًا في ذعر من هول الموقف.. تمدد وبدأ الشق في الوضوح شيئًا فشيئًا.. صرخ أحدهم:

- ما هذا بحق الله .

لم يكد أن ينهي عبارته حتى خرجت إشعاعات تحمل داخلها قوة جاذبة وبدأت في ابتلاع المكوك.. صياح ملأ الأرجاء ورعب كاد أن يخلع قلوب الجميع.. لحظات تمر وكأنها الدهر كله، الموت قريب ، أهذه النهاية حقًّا .

ضوء مهول يكاد يخطف البصر ومض بقوة ثم صمت كل شيء.. أمعن الجميع أسماعهم، كل الأشياء طبيعية وكأن أمرًا لم يحدث .. عاد نضال لتأمل الخارج، عطل ما أصاب الكاميرات ، أجهزة الإرسال كلها صامتة.. فتح محدد المواقع اتسعا محجريه دهشةً..

- هذا غير معقول ، نحن في مركز المجرة ، كيف وصلنا إلى هنا؟ ما الذي يحدث بالضبط .

بدأت إشارة ضعيفة تعلن عن نفسها على الشاشات الخاصة بالكاميرات الخارجية، الأمر هادئ بشكل ما .. حينها اقترح أن يخرج بالسفينة لاستطلاع الوضع بالخارج.. اعترض البعض خشية أن يحدث ما هو أسوأ..

- علينا المحاولة.. البقاء هنا لن يحل شيئًا .

السفينة الفضائية عبارة عن جزء ملحق بالمكوك، يستقله رواد الفضاء منه وإليه أثناء الاستكشاف أو البحث أو جمع العينات.

تحركت السفينة وداخلها نضال، وما أن نأى بمسافة ليست بعيدة حتى لمح شيئًا ما.. حاول العودة إلى المكوك ولكن هيهات .. تجمد ثم همس بالسباب على موقفه، هذه بدايات لشيء ما قريب يعرفه جيدًا.. إنه ذاك الثقب الأسود بمركز المجرة، يكبر الشمس بأربعة ملايين مرة ، لم يترك له مجال للتفكير جذب المكوك والسفينة بأجزاء من الثانية.. أي مصير ينتظر هؤلاء؟ .

***

لم يحضر *عبدالله* إلى العمل ككل يوم، للمرة الأولى تعمل *سارة* دونه مذ أن عملا سويًّا، أنهت ورديتها ثم حاولت الاتصال به لكنه لا يجيب .

ارتدت معطفها ثم استقلت دراجتها الهوائية متجهة إلى حيث مسكنه.. صعدت السُلم وطرقت عدة طرقات على باب الشقة.. نادت بعربية غير متزنة:

- عبد الله؟ ..

لم يجب.. أعادت النداء، تأملت الباب عَله بالداخل فيفتح لها حتى يئست، تنهدت.. عادت أدراجها والقلق حليفها لا تعلم ماذا أصابه بالتحديد .

أخرجت هاتفها ثم عاودت الاتصال مجددًا، لا يجيب .

***

ليلة حالكة السواد مرت .. لم يكن يعلم المسكين *عبدالله* الذي ينتظره، رجل غريب في الشقة هذا ما كان ينقصه حقًّا .. انقض عليه بعد أن لمح طيفه من خلف الباب بعصا الهوكي خاصته، استفاق الرجل ليجد نفسه مقيدًا في كرسي بأكثر من حبل.. اقترب منه بوجهه ثم حدثه بلكنة هادئة:

- أخبرني من أنت في الحال وإلا أبلغت الشرطة .

تأمل الرجل ما حوله وكأنه يتوازن، اتسعت حدقتاه يسأل في هلع:

- أين حقيبتي؟ .

أشار عبدالله برأسه إلى مكتب بالقرب..

- هذه؟ .

التفت الرجل ثم أومأ برأسه، سأل في لهفة:

- أداخلها الكتاب؟ .

- أي كتاب؟ .. أشعر وكأنك تتلاعب بي ، يا هذا أنا لست أحمقًا لا تحاول خداعي .

- من فضلك افتح الحقيبة أنا لا أتلاعب بك .

تأمله بعينين نصف مفتوحتين، ثم مد ذراعه دون أن ينأى بنظره جاذبًا إياها..

- ما هذا الثقل .

فتحها ثم أدخل كفه، جذب ما بداخلها ثُمَّ أظهره له.. كان شيء يشبه الصندوق مستطيل الشكل، يحمل عينًا صناعية في منتصفه ومغلقٌ بإحكام، مطعم برموز ما تحمل اللون

الأزرق.. فتش فيه يتأمله، حاول فتحه فلم يستطع.. رفع وجهه إلى الغريب أمامه:

- مَن أنت؟ ، وأي شيء بين يدي هنا؟ .. سأبلغ الشرطة .

- لا.. لا تفعل .

خرج من الغرفة ثم أغلق الباب بالمفتاح، تحرك يمينًا ويسارًا متوترًا، وضع يده في جنبه والأخرى أمسك بها جبهته.. قطع ما فيه صوت هاتفه إنها *سارة*.. أجاب وكأن الله أرسلها لإنقاذه :

- نعم.. نعم .

- ما بال صوتك؟ .

- أنا بخير أريد أن أراكِ .

أغلق الهاتف، ألقى بناظريه إلى الكتاب أمامه، ارتدى معطفه ثم حمل حقيبته مُدخلًا فيها الكتاب وخرج من الشقة .

تقابلا بالاتفاق بأحد المطاعم الشعبية بشارع قريب من مسكنه، جلس أمامها بنظرات تشتت، أشارت للنادل بإحضار كوبين من القهوة ثم رفعت وجهها إليه:

- أظن أن هناك شيئًا تريد الحديث عنه .

فرك كفيه في توتر ثم بدأ يقص على أسماعها ما دار بالأمس.. استمعت إليه بتركيز محاولة استيعاب ما يقول.

- وأين ذاك الكتاب؟.

- معي في الحقيبة.

- يمكنني الاطلاع عليه؟ .

أخرجه إليها فاتسعت حدقتاها، الرموز عليه مدهشة.. وكأنها تشير لشيء ما غير مفهوم أو من حضارة ازدهرت حتى بات صنع يديها لا غبار عليه، طلبت منه إعادته إلى الحقيبة قبل أن يلفت النظر..

- أريد أن أقابل ذاك الرجل .

غادرا المطعم، لا يعلم *عبدالله* لم عليه الوثوق بها، لكنها الوحيدة هنا التي يعرفها ليس أمامه خيار آخر.. فعِندما يأتيك الغرق تمسك بالقشة .

وصلا.. فتح باب شقته، همست إليه:

- أين الرجل؟ .

أشار إلى الغرفة فاتجها إليها ثم فتح الباب.. تجمد من الصدمة الكرسي فارغ والأحبال على الأرض.. الرجل وكأنه قد انصهر ، دخل هَرِعًا يفتش في جوانبها ولا وجود له .

- من المستحيل أن يهرب أنا قيدته بأكثر من مائة عقدة.. أنا نفسي كان سيصعب علي فكه كنت أنوي قطع الحبال من حوله بعد أن أفهم منه ما يدور .

اقتربت من الحبال، رفعتها بيدها تتحسسها بأناملها ثم حدثته:

- أظنه انصهر بالفعل .

التفت إليها.. توقف هنيهة يستوعب إلى ما ترمي فأردفت:

- انظر إلى حِبالك العُقَد كما هي.. التفسير الوحيد بالفعل أنه تقلص أو ذاب وهذا ليس منطقيًّا ، لكن ما نراه الآن ليس له غير هذا التفسير .

صمت محاولًا جمع تركيزه، ثم سألها:

- وكيف لبشر أن ينصهر؟.

- ومن قال أنه بشر؟ .

- سارة.. أتعين ما تقولينه الآن؟ .

ابتسمت ثم احتدت نبرتها:

- نعم أعيه، أنا أؤمن بالنسبية فلا شيء اسمه على الإطلاق، تأمل رموز الكتاب.. طريقة ظهور الرجل ثم اختفاؤه.. أعتقد أن كلينا أمام شيء غير مفهوم يجب حله .

***

فتح نضال عينه متأملًا ما فوقه برؤية مشوشة.. انقشع التشويش عن عينيه رويدًا رويدًا، ليل .. أمعن النظر للسماء ليجد قمرين متوازيين يطلان منها أحدهما في اليمين والآخر في اليسار، ضرب رأسه دوار ما.. أمسك رأسه في محاولة للاتزان والنهوض، مال جنبه متقيئًا محتوى أمعائه ثم رفع وجهه من جديد إلى السماء..

- أين أنا؟ .

حمل نفسه ثم مسّ ما تحته.. إنه عُشب ، ألقى بناظريه إلى الأفق.. رياح ضربت أركانه فتجمد.. بدت بقايا لحضارة ما الفراغ يأكل كل شيء فيها.. مباني مهدمة تُصَفِّر بأركانها الريح، تلفت من حوله كالمجنون محاولًا استيعاب ما حدث، يبحث عن المكوك والسفينة ولا وجود لأي شيء.. سأل نفسه كيف أتى إلى هذا المكان، أين هو بالتحديد؟ .

عَدَا لساعات باحثًا عن أي شخص لطلب المساعدة، خشي لو بقي على هذا الحال أن يموت أو يجن ، وصل إلى مكان مكشوف بالقرب من المدينة المهجورة.. صرخ:

- هل هناك أحد؟ .. فليساعدني شخص ما .

ما أن انتهى من عبارته حتى ظهر كيانين في السماء، اقتربا فاتضح أنهما مجسمين لآليين يستطيعان معاداة الجاذبية.. وجها فوهة ما خرجت من مخزن ثم بدأت بمهاجمته.. خرج منها ما يشبه الصواعق فما أن تمس الأرض حتى تُحدث حريقًا هائلًا.

عَدَا نضال عَدْوًا ومن خلفه هذان، وما أن ارتأى ساترًا حتى اختفى خلفه والآليان يستكشفان مِن وراءه.. ارتفعت دقات قلبه يخشى الفتك به.. وما أن شعر بانصرافهما حتى بدأ في التحرك، انسحب في حذر شديد، حضر الأمان في قلبه فَهَمّ باستطلاع المكان.. جمَّع تركيزه ثم حدَّث نفسه:

- المباني هنا رغم كونها مهدمة إلا أن طرازها وكأنه من المستقبل، طالما وُجد مثل هذا الشيء الذي طاردني إذن هناك بشر ، لا أظن أنهم من يحكمون.

قطع مسافة راجِلًا فاستوقفته فوهة اسطوانية ذات قُطر عملاق يستطيع المرور منها.. خطا أول خطوة فانزلقت قدمه مُحدثة صوتًا فظهرت الكيانان من جديد.. كاد أن يلقي حتفه حتى وجد يدًا تجذبه.. شخصٌ ما مرتديًا ما يخفي ملامحه، أشار إليه بالصمت.. وما أن اطمأن لرحيل هذان الشيئان حتى همس إليه بأن يتبعه، حرك يده فشق باب في الفراغ.. اتسع محجري نضال من الصدمة لا يفهم شيئًا.. كيف لهذا الشخص فتح مثل هذا في الفراغ، إنه يشبه الفجوة التي نقلته وفريقه لمنتصف المجرة.

عبرها فخرج في مكان ما، وكأنه مدينة منفصلة تحت الأرض كل من فيها مُعدم، هام فيما رأى حتى أن من أنقذه سبقه في الخطى، عَدَا خلفه ثم مسّ كتفه..

- يا هذا شُكـ....

لم يكمل عبارته حتى استدار إليه وقد أزال غِطاء رأسه، إنها فتاة خمرية البشرة.. دقيقة الملامح لها شعر أسود أجعد طويل، توقفت الكلمات في حلقه فقد تعجب كونها فتاة..

- آسف.. ظننتك شاب .

ابتسمت ساخرة، حدثته في استنكار :

- عليك ليس بجديد .

استغرب لكنتها فكأنها تعرفه منذ زمن ، تبعها حتى وصلا إلى مبنى قديم صعدت سُلمه محدثةً إياه:

- اتبعني .

يسير حذوها لا يفهم شيئًا؛ كل ما يفعله متابعتها.. توقفا عند باب من المعدن له مفتاح إلكتروني.. نادته الفتاة *افتح إنه أنا*، بصمة صوت على ما يبدو.. استدار القفل تلقائيًّا؛

ولجت إلى الداخل.. تأملت ما حولها وكأنها تبحث عن شيء ما، المكان بدا فارغًا..

- سيد سبستيان، أين أنت؟.

خرج رجل من أحد الغرف، عجوز يبدو على قسمات وجهه أنه اقترب من عامه الستين إن لم يكن قد اجتازها بأعوام، طويل القامة متوسط العود، بشرته بيضاء تشربت بعض الحُمرة.. يغزو الشيب رأسه وبعض لحيته.. له شارب كثيف كاد أن يُخْفي فمه.. ما أن رآها حتى هرول إليها..

- أوه تيا ، قلقت عليك كثيرًا أين كنتِ؟.

- أنظر.. إنه والاس .

- والاس؟ .

حرك وجهه يمينًا، ملأت الدهشة تعابيره، وثب عليه يعانقه وكأنه غير مصدق :

- ظننتك ميّت ، أين كنت كل هذا؟.. كل شيء صَعُب إكماله مذ اختفاؤك.

أدار وجهه حيث *تِيا*..

- أين وجدتِه؟.

- لا أعرف أين كان بالضبط، لكني رأيته يهرب كالدجاجة وهم من خلفه يحاولون قتله .. أحمق .

أطلقت تنهيدة سخرية ثم غادرتهم إلى داخل احدى الغرف، نضال صامت.. يستمع إلى الحديث بتركيز شديد ولا يعلق بكلمة، للآن لا يفهم ما يدور.. خطر في رأسه أنه يشبه شخص مقرب على معرفة وطيدة بهم، خشي إنكار ما يقولانه فيلقيان به إلى حيث كان.. لو حدث ذلك سيموت أبشع مَوّتة.. عادت تيا وبيدها زجاجة تحمل مادة هلامية، ألقت بها إلى سبستيان..

- ضمده أنت، أنا لن أفعل.

كان نضال قد جُرح في ظهره وقدمه إثر سقطته، وقفت *تيا* من خلفه ثم قامت بتمزيع ردائه بجرأة تشوبها اللامبالاة حتى أنه نظر إليها في غيظ ممزوج بالدهشة فلم يتخيل كونها بهذه الجُرأة أيضًا.. توقفت لوهلة تتأمل ظهره، رفعت عينها بنظرة حادة.

- ماذا؟، لم أعهدك خَجِلًا..

لكمته بقوة في كتفه ثم تركته لسبستيان يتولى مداواته، تأوه متعجبًا من أفعالها هذه، فرغم قوامها الممشوق الذي يدل على كونها أنثى إلا أن أفعالها لا تدل سوى على أنها رجُل محارب متنكر في جلد امرأة.. لاحظ العجوز صمته فأردف قائلًا:

- لا تغضب عليها، *تيا* كما تعرفها غليظة لكن طيبة القلب .

- لا بأس.

وضع كمية من السائل الهلامي على خدوش قدمه، تشربه جلده فعاد كما كان وكأنه لم يصب بأذى، طلب منه أن يعطيه ظهره ليكرر هذا مع الكدمات فيه.. ما أن رآه حتى توقف وهلةً، وكأنه رأى شيئًا ما.. داواه ثم حدثه بنبرة ليست كسابقتها:

- أنت لست والاس .

قلب نضال سقط في قدمه من الخوف.. صمت طويلًا والأخير ينتظر إجابته، التفت وقد هم في الحديث ليجد سلاحًا ما يخرج منه شعاع أخضر اللون صوب رأسه، حدثه سبستيان:

- مَن أنت، ومَن أرسلك.. تحدث في الحال وإلا فجرت رأسك .

امتلأ توترًا، حاول التركيز ليجيب فصرخ فيه:

- انطق في الحال .

- كُنت سأخبرك، أنا بالفعل لست والاس هذا .

- إذن مَن أنت؟.

أطلق تنهيدة يأس، بدأ يروي له ما دار مذ أن كان هو وفريقه بالمكوك حتى وصل إلى هذا المكان الذي إلى الآن لا يعرف ماهيته.. بدا عليه التصديق لكنه حاول إظهار غير ذلك.

- أتريد إقناعي بهذه الترهات .

- هذه ليست ترهات، هذه هي الحقيقة.

تأمله طويلًا ثُم أردف:

- إن كان ماتقوله حقيقيًّا، أخبرني أين بقايا سفينتك؟.

- صدقني لا علم لي، أنا حقًّا أتمنى لو أعرف.. أريد العودة إلى موطني، أريد مراسلة الوكالة.

- وكالة ماذا؟ .

- ناسا .

ألقى إليه بنظرة نارية.. ثم صرخ فيه:

- أتسخر مني؟ .

- أبدًا ، ناسا وكالة خاصة بدراسة الفضاء .. أعلم أن المكان غريب ولكنه في الأخير

جزء من كوكب الأرض.. هل هناك بشري على الأرض لا يعرفها؟ ..

كأنه ينظر إلى معتوه حدثه:

- أرض ماذا؟ ، أنت على كوكب أندروميدا .

ما أن سمع عبارته حتى شعر بفقدان توازنه، أحقًا ما يسمعه؟ .. أهذا حُلم، كيف انتقل إلى هذا المكان؟ .. أشفق عليه العجوز، أنزل سلاحه ثم ربَت على كتفه.. سأله بصوت أجش:

- اسمع يا هذا، لا أعرف ما الذي أفعله الآن لكني أصدقك.. حدثني عن الشيء الذي التقمك وفريقك..

- أظنه ثُقب أسود ، وسط مجرتنا.

- جيد، هناك أشياء مشتركة بين مجرتنا ومجرتكم، الثقوب السوداء هُنا كذلك.. قبل هذا الدمار الذي حل بأندروميدا كُنا قد توصلنا إلى تطبيق عملي للانتقال عَبر الزمن، الأمر لم ينجح برمته لكن هناك بعض المحاولات أعطت بوادر لنجاحه بشكل كُلي في المستقبل.. قد يكون ما حدث لك شيء من هذا القبيل.

الكلام توقف في حَلق نضال من الصدمة، ثُم خَرج زاحفًا يستغيث:

- أتعني أني هنا في عالم موازٍ؟ .

- أظن ذلك، لا وجود لمثل هذا الكوكب الذي تتحدث عنه لا في مجرتنا ولا حتى في المجرات المُكتشفة من حولنا ، رُبما كنت محظوظًا كفاية فجذبك ثُقبٌ دوديٌ وألقى بك إلى هنا.. لدينا نظريات تتحدث عن عوالم موازية لكنها تظل نظريات، الانتقال لدينا رغم أن تجاربه قليلة ومقننة يكن في نفس البعد ولمسافات محددة.

- كيف لك أن تعلم هذه المعلومات؟ .

- أنا عَالِم هارب من ضِمن عشرة عُلماء قد قُتِلوا.

- قُتِلوا؟ .. كيف ذلك؟.

- ستعرف.. عليك أن تعرف فأنا سأحتاج إليك، لكن الآن أنت والاس.. تصرف أنك هو، سأُعَرِّفُك لماذا.. سأخبرك بكل شيء عنه.

لم يفهم ، بدا على الرجل الجدية وكأنه أمر هام.. أومأ برأسه، قطعت حديثهما *تيا* بدخولها ثم حدثت سبستيان:

- ضمدت جراح الأحمق؟.

نظرت إليه منتظرة رد فعله، يبادلها النظرات ولكن دون انفعال.. ابتسمت ساخرة ثم خرجت من المنزل .

***

الفصل الثاني

لم يبد على سارة أنها بخير، دخلت قاعة المحاضرات وبيدها كوب ساخن من القهوة آملة أن يعيد توازنها.. ما حدث الأيام الفائتة أرق عقلها.. الأمر أشبه بلوغاريتم غبي لا حَل له، التخمينات التي خمنتها جميعها غير منطقية.. الكتاب مركز اللغز، هُم حتى ليس لديهم معلومات عن طريقة فتحه .

دَخل البروفيسور، فتح حاسوبه المحمول ثُم بدأ بسرد واحد من نظريات *وليام أونرو*.. لَوَّح بيده وقد انتابته الحماسة:

- وليام أونرو العالم الإيطالي حدثنا عن واحدة من نظرياته الخاصة بالتنقل عبر الزمن، فإن أردنا الانتقال إلى الماضي علينا أن نعبر خلال تسريع لا نهائي أي عَبر حرارة لا متناهية وهذا سيؤدي إلى اضطرابات، فكُلما ارتفعت الحرارة فقد الشيء هويته، من الصعب تكيف كائن حي إذ زادت درجة الحرارة عن 50 درجة مئوية فحتي الأشياء الصلبة ستنصهر بالحرارة.

انتبهت *سارة* لحديثه، الأمر جنوني لكن لِمَ لا؟.. ماذا إن كان الشخص عابرًا من الماضي أو المستقبل؟ ..

انتهت من محاضرتها ثم اتصلت ب*عبدالله*..

- أريد أن أراك.. سآتي إلى منزلك الآن .

خَرجت حاملة أغراضها، وصلت حيث مسكنه ثم طرقت الباب.. فتح دون أن يزيل السلسلة وما أن تأكد أنها هي أدخلها.. مسح شعره باديًا عليه الإرهاق، دخلت إلى مطبخه المكشوف على الصالة ثم قامت بإعداد كوبين من القهوة، جلس إلى الأريكة فلحقت به أعطته كوبه الخاص، شكرها ثُم هَمَّ بشُربه.. تأملته بينما يرتشف أول رشفة، حدثته بنبرة هادئة:

- أظُن الغريب مسافرًا عبر الزمن.

توقف ما شَرِبه في حلقه، احتله السعال.. لم يتوقع تخمينًا كهذا منها، بدت في نظره فتاة مجنونة..

- منذ يومين خمنتِ كونه ليس بشرًا واليوم تحدثيني بأنه عابر عبر الزمن، حسنًا أنا أعرف أنك غير اعتيادية لكن الآن تأكدت أنكِ تحتاجين لعلاج نفسي .

- أنا لا أمزح، إن كنت تسمي ما أخبرك به الآن جنونًا.. فما ظنك برجُلٍ ظهر دون سابق إنذار في شقتك ثُم اختفى بدون سابق إنذار أيضًا تاركًا كتابًا لا يبدو كونه كتاب؛ مُحمل برموز مبهمة لا يُمكن فتحه، لو سَمع القصة أحدهم لأبلغ عنك الشرطة .

استسلم لحديثها فهي محقَّة .. فمن غيرها سيصدق ما حدث ، أمر جنوني تولت أمره امرأة مجنونة.. همس لنفسه مستاءً *سألقى حتفي*..

- ما بك؟ .

- لا شيء ، توقف دماغي.. أخبريني أنت بالذي يجب علينا فعله .

ابتسمت ابتسامة المنتصر، أردفت:

- ما أقوله مجرد تخمين، لكن لنصل إلى ما نريده علينا طرح كل الاحتمالات والبحث حولها.. نظرًا لظروف دراستي فأنا أؤمن أن *التنقل عَبر الزمن* سيصل إليه الإنسان يومًا، بعض الحضارات القديمة على الأرض مُبهمة.. لم يصلنا كل ما توصلوا إليه، مثال أطلانتس المفقودة، بعض الأخبار القليلة تقول أنهم ازدهروا في كل شيء، فلنفترض أنهم توصلوا لسر التنقل عبر الزمن.. ماذا إن كان أحد شعبها مرتديًا زيًا ملائمًا لعصرنا؟ .

- أنت حقًّا مجنونة .

- أخبرتك أن تضع كل التخمينات صوب عينيك، نحن نفترض جدلًا.. لا أُجزم ما أقوله ولكني أضعه واحدًا من التخمينات، سأبدأ بالبحث في الحال وبمجرد أن أتوصل لشيء ستكون أول العارفين.

فتاة مفعمة بالحياة، مُقْدِمَةٌ على المجهول بصدرٍ عارٍ؛ نَشْأتُها بدولة تكفل الحريات هي سبب في تكوينها العقلاني والنفسي بهذا الشكل؟ ، الأمر يدفعك لدراسة ما يدور داخلها حقًّا.

وكأن عبدالله أصابته لعنة الخمول، ليس متحمسًا بقدر أنه يريد التخلص من هذا الأمر وبسرعة.. أستُنْزِف بموطنه حتى قُضي على آخر ذرة طاقة لديه، يتذَكر اعتقاله الأخير جيدًا فقط لأنه أشهر رأيه بين زملائه بخصوص الحياة السياسية في مصر، بات خائنًا في عين النظام وفي عين الحكومة.. فُصِل من جامعته ومن الحياة كلها، يريد الراحة ليس أكثر الآن..

***

الحياة على أندروميدا تشبه المجازفة.. أرض الأموات، فليس بالضرورة أن يُقنن الموت بصورته المادية فقط، البعض يُطلق عليهم لقب *الأموات* وهم يتنفسون.. يأكلون، يمارسون ما يحتاج إليه الكون للحفاظ على النسل دون الانقراض.

بينما نضال غارق في نوم عميق على سرير صغير بشقة العجوز؛ انطلقت أبواق تصرخ في الدنيا من كل صوب وحدب، فزّ من مرقده يتأمل ما حوله باحثًا عن مصدر الصوت.. إنه الخارج .

دون أدنى تفكير خَرج من الشقة مستخدمًا الدَّرج للنزول، ولج من المبنى يتأمل المارين..

الجميع هَرِعوا مسرعين بساق من عجين.. خَرجت شاشة عملاقة من الأرض ثُم بدأت ببث حدث ما..

ظهر رجلٌ مُقنع مرتديًا بذلة من الجلد سوداء وقفازًا أسودًا على الشاشة، تحدث بلكنة منمقة:

شعب أندروميدا الحبيب، كما تعلمون.. نحن نحاول الحفاظ عليكم آمنين، أنظروا إلى ما حل بالكوكب بسبب ما أطلقوا على أنفسهم عُلماء.. نشروا الخراب بالكوكب ولازالوا يسعون .. نحن هنا لأجلكم نحارب هؤلاء بكل رمق، كل ما أريده منكم الصبر للقضاء على المخربين، من رأى أحدهم فليسرع بإبلاغنا لأجل سلامة الجميع..

انتهى البث وعادت الشاشة العملاقة إلى سكنتها، نضال لا يفهم شيئًا على الإطلاق ، من هذا الرجل؟ .. وعن أي شيء يتحدث؟ ، استفاق على يدٍ تربت على كتفه فالتفت في فزع.. إنه العجوز سبستيان..

- رأيت البث .. اتبعني الآن.

صحبه إلى حيث المجهول، فتح ممر إلى أسفل الأرض بمكان ناء بواسطة جهاز صغير لوح به بيده، يتنقلان من ممر إلى ممر، مصابيح تضوي بالأخضر على الجانبين، سلالم من المعدن تسمع صوت ارتطام نعلك بها بينما تستخدمها.. حتى توقفا أمام بوابة عملاقة مصمتة، وقف سبستيان أمام جهاز معلق بجانبها فأطلق إشعاعات مرّت على وجهه عِدة مرات.. ثُم خَرج صوت امرأة تحدثه:

مرحبًا سيد سبستيان، لم أرك منذ مُدة

ابتسم حينها:

- افتحي الباب *صوفيا*، معي ضيف .

عادت الإشعاعات من جديد، ولكن هذه المرة تتفحص وجه نضال.. فتحدثت المرأة:

- من ضيفك؟ ، يحمل جزءً جينيًّا لوالاس لكن هناك خللٌ ما ..

- كفى أسئلة صوفيا وافتحي الباب .

نفذت الأمر.. دخلا؛ يقلب نضال بعينيه في المكان فلم يجد أحدًا.. وجّه سؤاله للعجوز:

- أين المرأة؟ .

تجسدت امرأة أثيرية بالغرفة، منمقة الملبس لها شعرٌ قصير..

- صوفيا حارسة المختبر، إنها روبوت ليست ببشرية .

رحبت به ثم أعطت أمر للشاشات من حولهم بالعمل، الشاشات هي الأخرى أثيرية تنقل

صورًا من كل جزء على الكوكب، عاد العجوز للحديث:

- تعلم أين أنت؟ .

- لا.

- هذا المكان لا يعلم به أي مخلوق سوى ثلاثة، أنا وتيا ووالاس.. والآن أنت رابعنا؛ تعلم لم أتيت بك إلى هنا؟ .

صَمت جاذبًا انتباهه فتأمله نضال مترقبًا.. أكمل:

- أريدك أن تكمل ما بدأه والاس..

- مَن والاس؟ .

- والاس واحد آخر من العشرة عُلماء الذي بقيت أنا منهم، اختفى منذ عدة أشهر ولا أحد يعرف إن كان حيًّا أو قد تم الفتك به، لم أؤكد على موته فتفتر عزيمة البقية.. ولا أعلم سبب ظهورك الآن ولكنها الأقدار تشير لشيء ما .

كوكب أندروميدا وصل لأعلى مراحل التقدم العلمي ، حتى ارتقت الحروب من مأكل ومشرب إلى نوع آخر أكثر وحشية ودمارًا.. ظهر مجموعة رجال يمتلكون الكثير، ثم بدأوا بشراء العلماء لأغراض ما مجهولة.. حتى امتلكوا أسلحة فتاكة وبدأوا بتهديد البقية، إما شراء أدمغتهم أو قتلهم.. وأوهموا الشعوب كوننا أعداءهم..

- كيف؟ .

- يدمرون ويقولون نحن ، حتى كَرِهَنا الجميع، بدأنا بإنشاء مدينة تحت الأرض وفَررنا إليها باستخدام ما توصلت إليه أنا ووالاس بخصوص الانتقال عبر الزمن..

- وماذا عن سطح الكوكب؟ .

- السطح المتآكل هذا يسكنه ملايين من البشر.. أكثر من نصفهم على اقتناع تام أننا على حق.. لكن الصمت ثمن العيش بسلام على هذا الكوكب، أما بقيتهم فبطونهم مركز التفكير، كلما حرمهم والوه وقالوا آمين .

بالأعلى قمرٌ صناعي يشبه الحقيقي يرصد كل حركة.. وحُراس آليين يوجهون أسلحتهم لأي وجه غير مألوف.. أو وجوه أخرى بُرمجوا على مهاجمتها بمجرد رصدها .

فَهِم نضال أخيرًا تفسير القمرين، خصائص أندروميدا شبيهة بخصائص الأرض وهذا يفسر عدم موته حتى الآن، فحتى من يعيش عليه بشرُ كبشر كوكبه مع فارق جيني طفيف.. هُم أكثر ذكاءً على حد ما رأى..

عاد لتأمل سبستيان يفكر عميقًا بعرضه، ضيق عينيه ثم استأنف:

- وما المقابل؟ .

- سأعمل جاهدًا على إعادتك لعالمك.

نظر إليه نظرة تردد معناها واضح..

- إن ساعدتك احتمالية موتي ستزيد، سأخسر حياتي ولن أعود لكوكبي .

- وإن لم أفعل ستظل حبيسًا هنا، و..

صمت هنيهة، فأردف نضال:

- وماذا؟ .

- سأتخلى عنك وألفظك للسطح، وحينها ستلقى حتفك ، تملك وجه والاس.. لن يتركوك حيًّا .

خياران أحلاهما مُر، ماذا عليه أن يفعل ولا مفر.. إقشعر بدنه، غلت الأفكار في رأسه كبركان.. همس إليه بصوت المضطر:

- أمهلني من فضلك..

- لك ما تريد.. لكني لن أنتظر طويلًا.

***

بعد بحث طويل قامت به سارة عن قصص خارقة حدثت بالفعل، توصلت لواحد من العناوين لعجوز أوكرانية اقتربت من عامها التسعين انتقلت منذ ثلاثة أعوام للعيش بإنجلترا مع أحفادها، بيوم العطلة طرقت باب عبدالله وبعد وقت استجاب.. بعينين نصف مفتوحتين من أثر النوم فتح لها، مسح على شعره الكثيف المتناثر بعنف في محاولة لإفاقة نفسه.. تبعته للداخل وأغلقت الباب.. بصوت ناعس حدثها:

- ما الذي أتى بك في هذا الوقت الباكر؟ .

- باكر؟ ، إنها الظهيرة .

دخل المطبخ وقد فتح باب البراد، تناول زجاجة من المياه يتجرعها.

- هذا يوم عطلة.. الناس تنام فيه كالأموات.

قهوة؟.

- من فضلك.

أومأ برأسه وقد هم بصنع كوبين.. لم تترك له أي مجال للصمت، حدثته بحماس:

- أريدك في رحلة قصيرة.

- إلى أين؟.

- ستعلم عندما نصل إلى هناك.

يعلم أنها متهورة ومصائبها كثيرة، لم يعلق وكأنه اعتاد على قراراتها السريعة، سحب كوبي القهوة بعد أن ملأتهما الماكينة.. أعطاها خاصتها وقد هَمّ بتناول خاصته، أوقفته على فمه ثم صرخت فيه:

- قلت أريدك في رحلة الآن، انهض سنتأخر.

ترك الكوب من يده مستسلمًا وذهب لتبديل ملابسه متمتمًا بالسباب، تبدلت نظرتها الجادة إلى أخرى ضاحكة ثم هَمّت بكوبها .

***

توقفت سيارة الأجرة أمام منزل عملاق له بوابة معدن من الخارج على الطراز القديم، أخذ السائق أجرته ثم انطلق تاركًا إياهما يتأملانه.. أخذت سارة نفسًا عميقًا ثم زفرته وكأنها تستعد لسباق، وعبدالله تائه لا يفهم شيئًا.. حدثته:

- هيا .

- هيا ماذا؟ ، أنت تسوقيني خلفك دون حتى أن تفسري أي شيء.

- ستفهم بالداخل .

لم تُعر لنظرته الغاضبة اهتمامًا، ضربت ذاك الجرس بالخارج فخرج صوت من فتحات أسفله يحدثها:

- مَن؟ .

أجابت حينها:

- سارة ومعي عبدالله صديقي، لدي موعد سابق مع السيدة فلانتينا كوليك.

- نعم.. قد أعلمتنا هي في انتظاركما.

فُتح الباب تلقائيًا فدخلا ليجدا رجلًا في استقبالهما صحبهما إلى إحدى الغرف بالداخل، أثاث فخم مُذهب وكأنه يعود للثلاثينات، مدفأة حطبية بأحد زوايا الغرفة بنقوشات من الخارج.. دخلت مديرة المنزل بزيها وقد قدمت لهما الشاي على منضدة جرارة بفناجين بورسلين مطعمة برسومات عتيقة، الأمر أعطاهما شعورًا بكونهما بأحد الأفلام الانجليزية القديمة.

قطعت جلستهما السيدة فلانتينا بولوجها على كرسي متحرك، بدا عليها الإعياء الشديد.. عجوز ذات شعر أشيب قصير لها عينان زرقاوان نقيتان وبشرة باهتة يكثر فيها النمش

تملؤها التجاعيد.

- مرحبًا يا صغيريّ .

ابتسمت إليها سارة..

- شكرًا لاستقبالك سيدة فلانتينا.. أنا سعيدة جدًا لرؤيتك.

بصوت مهزوز أجابتها:

- وأنا عزيزتي.. أتيتما للسؤال عن سيرجي برامينجو أليس كذلك؟.

- نعم.

صمتت طويلًا وكأنها تستعيد ما كان بزمن سحيق..

- للآن لا أصدق ما حدث ولكنه قد حدث بالفعل .. سيرجي صديقي المقرب أحب بعضنا بعضًا وكنا ننوي الزواج حتى ذلك اليوم الذي اختفى فيه.

فَهِم عبدالله إلى أي طريق يسير الحديث، انتبه إلى ما يُقال، أكملت السيدة:

- يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من إبريل لعام 1958م خرجنا سويًّا، التقطنا الصور وتسكعنا كعادتنا ثم عاد كل منا لمنزله، ومنذ ذلك اليوم وقد اختفى ولم أعلم عنه أي شيء.. أبلغت بعدها الشرطة وسألت الكثيرين، البعض يقول قد سافر وآخرون أنه قد مات.. لكن الحقيقة أين ؟ هذا الذي لم يستوعبه أحد .

استأنفت سارة بثقة:

- تقصدين ما أبلغوك به أليس كذلك؟ .

شردت قليلًا، لمعت عيناها بعَبْرَة هاربة.. وكأن أمره مازال يؤلمها..

- بعام 2006م فوجئتُ بفريق بحث زارني ببيتي بأوكرانيا.. سألوني إن كنت أعرف شخصًا يدعى *سيرجي برامينجو* وأعطوني بعض الصور خاصته، كانت لكاميرا أذكرها جيدًا قد اشتراها حديثًا وأخذ بها عدة لقطات يوم اختفائه؛ الصور جديدة وكأنها بالأمس ؛ فتحت ألبومًا قديمًا أجمع فيه لحظاتنا معًا وما أن تأكدوا أنه نفس الشخص حدثوني عن شاب ظهر منذ عدة أشهر معه كاميرا حملت هذه الصور، أودع بمصحة نفسية ثم اختفى في ظروف غامضة.. لا يعرفون من أين أتى ولا أين ذهب؟ .

يومها لم أتوقف عن البكاء، أشعر وكأنه سيرجي لكن لا علم لي كيف؟.

وجدت القشة، سألت في لهفة ظهرت بصوتها:

- أي مصحة، هل يمكنك إعطائي اسم الطبيب؟.

- بابلو كتركوف.. لا أعرف أين مصحته تحديدًا، لكني لم أنس اسمه .

التفتت سارة إلى عبدالله تحدثه:

- سأقوم بعمل بحث على الإنترنت عن هذا الاسم بالتأكيد سأجد عنوانه.

قطعت السيدة حديثهما بسؤال بعيد كل البعد عن الموضوع:

- هل أنتما حبيبان؟ .

أطلقته ببراءة فتوتر الجو، استأذنا في الخروج.. المنطقة بشكل ما نائية تبعد عن غابة شجرية عدة أميال، قررا السير حتى يتعثرا بسيارة تقلهما وبعد صمت استنكر عبدالله:

- ربما تهذي ، قاربت على التسعين.

لم تجبه، شاردة ليست هنا.. أدار وجهه إليها يناديها:

- سارة، أنا أحدثك.. سمعت ما قيل؟ .

بادلته الانتباه ولا زالت عيناها تحملان شرودهما، نادته بصوت وَهِن:

- عبدالله..

انتبه أكثر لها..

- أظنني معجبة بك.

توقفت قدماه حينها، لم يتوقع أن تُخرج مثل هذه العبارة الآن ، اعتدلت أمامه تتأمل ملامحه.. لا رد فعل، أعادتها على مسامعه وبعد صمت طال شق انتباهها:

- لن أستطيع .

وكأنه سهم قد اخترق قلبها، هي منجذبة إليه مذ الوهلة الأولى.. نما الانجذاب دون إرادة منها لاحتكاكها به عن قرب، لم تتوقع رفضه ولم تفهم سببه.. ما تشعر به في هذه اللحظة لا كلمات قد تصفه، رفض المشاعر مؤلم إلى حد كبير..

لملمت بقايا تماسكها وابتسمت، منعت عَبراتها وحدثته بكبرياء:

- حسنًا، لنكمل طريقنا .

وصلا لطريق عمومي فاستقلا سيارة أجرة، خيّم الظلام.. صامتة هي لا تبرز ضعفها تتمنى لو تصل لمنزلها في الحال ولا شجاعة لديه لفتح حديث.. يعلم ما اقترفه ونتيجة صنيعته.

طلبت إيقاف السيارة فحدثها في لهفة:

- إلى أين؟ ، لم نصل بعد .

أجابت ببرود مصطنع:

- أريد السير قليلًا وحدي .

خرجت وأغلقت الباب، تابعها بناظريه حتى اختفت يتأمل الطريق شاردًا، أي إعصار تركها فيه ورحل؟ ..

أما عنها فلم تستطع التماسك أكثر انهارت باكية لا تشعر بقدميها.. بكَمٍّ قد أصاب العالم واجتمعت كل الأصوات داخلها تدوي.. سرى الصدع بجدران روحها، تشعر بألم لا تعلم كنيته ولا موضعه.

تحسست قلبها وكأنها تبحث عن مصدر الألم، وصلت إلى شقتها دخلت غرفتها وارتمت على سريرها ثم أخفت وجهها في وسادتها تصرخ علها تهدأ.. هيهات .

***

جلس عبدالله على أريكته في الصالة وقد سُرِق لُبه يفكر فيما دار، أما فعله صائبًا؟ .. أم أنه قد أخطأ عندما رفض مشاعرها، فتحت له بابًا لقبره وحدثته *أنا هنا لأجلك، أنا النور * فأغلق الباب في وجهها وأقسم ألا يخرج منه أبدا .

ما مَرّ به جعل منه كتلة عملاقة من التردد والتشتت والقرارات الخاطئة.. ببلاد غريبة بعيد عن أهله وأصدقائه مرغمًا، لم يجزم على البقاء ولا يمكنه العودة.. مستقبله ضبابي، لا يملك أي أداة تمكنه من الوقوف على أرض صلبة.. كيف له أن يفكر بزوجة وأطفال وهو يلاطم أمواج قدره ولا يدري على أي شاطئ سفينته سترسو .

لا مشاعر لديه ليهبها لأحد، لا مستقبل لديه ليبنيه بجوار أحد.. هو أجوف بلا هوية .

ضرب عقله الكتاب بالداخل، فتح باب غرفته وجلس على كرسي مقابل مكتبه يتأمل نقوشه.. همس متمتمًا:

- ترى من أي اتجاه مفتاحك؟ .

***

لم يكن نضال بخير على الإطلاق منذ أن خيره سبستيان وعقله يفور كالقِدْر على نار هادئة.. لم يصل بعد إلى قرار، قطعت حديث نفسه *تيا* بطرقها باب غرفته، أذن لها.

- نريد جلب بعض المؤن من السطح، أريدك معي والاس .

يعود من جديد للسطح؟ ، تمزح هذه أليس كذلك .. تغيرت قسمات وجهه ولم يبرز أي رد..

- ماذا؟ ، أحدث نفسي هنا؟ .. هيا انهض .

كومت رداءً ما التقطته من الخِزانة ثم ألقت به في وجهه، يشبه رداءها الذي كانت ترتديه

عندما رآها أول مرة، ملمسه بلاستيكي.. استدارت تيا تتأمل مداعبته للرداء بأنامله وكأنه طفل يتعرف على العالم، حدثته بتهكم:

- آسفة لو قاطعت ملاطفتك للباس، علينا أن ننتهي من هذا قبل أن يحل الليل ويسطع قمر المراقبة..

ارتداه بينما ارتدت مثله هي الأخرى، كان يحمل مادة ما تساعدهما على إخفاء آثارهما، قطعت الزمكان بنفس الجهاز ففتحت فجوة ما، أشارت إليه ب*هيا*، ولجت إليها وهو من خلفها.

خرجا لأرض صحراوية نائية بعيدة عن الأنام، سارا مسافة ليست بالقصيرة.. كلما اقترب نضال من العمار كلما زاد توتره، مع أي نوع من النفوس سوف يتعامل؟ .

زحام يموج الناس فيه بعضهم في بعض، ترى أرضهم من بعيد مهجورة خرابًا حتى تقترب ، تنظر في عين الواحد منهم فتُبصر في نفسه الخواء، يهيمون على وجوههم بطرقات ينهش الفقر والفقد صلبها، أي نكبات لاقوها هؤلاء ليصلوا إلى هذه الحالة؟ .

تأمل نضال الراجل والمحمول، أطفال جوعى تصرخ وشباب شاب في مقتبل العقدين.. أيمكن لقبلة الظلم أن تقتل؟ ، نعم.. على ما يبدو فمذ أن وطأت قدماه الكوكب ولم يرَ سوى الأموات .

باعة يتاجرون بأطعمة على وشك فقد صلاحيتها، نصفها تفوح رائحته.. اقتربت *تيا* تشتري البعض بعملة إلكترونية فابتسم نضال ساخرًا.

همس إلى نفسه *أهذا ما بقي من العلم؟ .. عملة ذكية وأصحابها لا يجدون ما يسُد فجوات بطونهم؟ *..

قطع أسماعهم صُراخ طفل يستغيث، التفت إليه ليجد بائعًا أهوجًا ممسكًا بتلابيبه..

- أتسرق؟ ، سأعلمك كيف للسرقة أن تكون.

فتح قاطع ليزر وهَمَّ بقطع يد الطفل فتحرك نضال وضرب يده، لم يشعر بنفسه إلا وعنق البائع بين يديه، استغاث فظهرت قوات آلية من العدم، جذب أحدهم ردائه فأسرعت *تيا* في محاولة لتفادي الأمر تحدثهم:

- إنه لا يقصد.

بصوت ذكي تسمع فيه ذبذبات خفيفة حدثها الجُندي:

- هويتك يا آنسة .

أخرجت هويتها المزيفة، تحقق منها ثم التفت إلى نضال يسأله عن إثبات الهوية خاصته، أي إثبات هو لتوه قد ظهر على سطح الكوكب.. لحظات من الجمود تبعتها حركة تلقائية

من *تيا* بسلاح صغير أظهرته.. هددت:

- لا أحد يقترب.

صرخ الجميع من حولها بصوت يأكله الغيظ *أتباع العلماء *.. عَدَت تيا ونضال من خلفها.. أطلقوا عليهما النار فأصيبت بقدمها، سقطت في الأرض فحملها وأكمل عَدْوَه شعر وكأنه قد حوصر.. ظهر شاب من العدم وأشار إليه *اتبعني*..

لا بُد.. وكأن السماء أرسلته إليه في الوقت المناسب، أدخله أحد المنازل القديمة بالقرب.. استأنف الشاب:

- ابقيا هنا حتى يهدأوا بالخارج.

ثم التفت موجهًا حديثه لنضال:

- أرِح جسدها على هذه الأريكة جُرحها عميق ويحتاج لعناية.

فَعل ما حدثه به الشاب، لم يجب.. لا يعرف لم ساعدهما، وتيا تتأمله بشك..

اتجه إلى الداخل ليحضر شيء ما فهمست لنضال:

- علينا أن نتحرك من هنا في الحال، ما أدراك من الممكن أن يبلغ عنّا.. سأفتح بوابة قبل أن يأتي.. احملني وتحرك داخلها بمجرد فتحها .

حملها فحركت يدها بجهازها لفتح البوابة وعبرا منها عائدين إلى منزل سبستيان.

- يا إلهي، ماذا حدث لك *تيا*.

صرخ بها العجوز ما أن رآها غارقة بدمها.. هرع يبحث عن أدواته ليطببها، نظر إلى نضال منتظرًا منه الشرح والكلمات فقدت طريقها للخروج؛ طَرْقٌ على الباب أذاب جليد الموقف وكلٌ ينظر للآخر.. مَن مِن أهل المدينة وماذا يريد؟ .

اقترب سبستيان من الباب ثم همس عن طريق جهازه يسأل:

- مَن بالخارج؟ .

لم يجب الطارق ففتح عدسة تعكس الواقف بالخارج، اتسعت حدقتاه عندما رآه.. فتح مسرعًا ثم أمسكه براحته جاذبًا إياه للداخل مغلقًا خلفه.. خرج اسمه من بين شدقيه وكأنه آتٍ من أعماق ذاكرته:

- يُليان؟ .

- سيد سبستيان، أما زلت على قيد الحياة؟ .

ارتمى بين ذراعيه، يحتضنه غير مصدق.. ثُم أكمل:

- ظننتك قُتلت سيدي، أنا لا أصدق.. أما زال هناك أمل .

- كيف أتيت إلى هنا؟ .. تعال.

ما أن لمحته تيا حتى صرخت فيه من بين ألمها:

- كيف أتيت إلى هنا؟ .

حدثها سبستيان مستغربًا:

- تعرفينه تيا؟ .

- إنه من أهل السطح، آواني ووالاس عندما طاردتنا القوات بالأعلى.

ربَتَ حينها على كتفه مشجعًا..

- شكرًا لإنقاذهما يُليان، لم تتغير يا صغيري..

تأملته باندهاش ثم صرخت فيه:

- ما الذي تفعله أنت الآن؟ .. أقول لك من أهل السطح، كيف تأمن حتى وإن كان نطقك لاسمه يعني أنك تعرفه.

- اهدئي تيا، إنه أحد الصغار الذين سعيت لتعليمهم ليخلفوني من بعدي قبل أن يحدث هذا كله.. لم تتغير معالم وجهه رغم أن ذلك منذ زمن.

ثم التفت إلى يُليان يحدثه بنبرة فخر:

- أصبحت شابًا، بتّ في الثامنة عشر من عمرك أليس كذلك؟ .

أجاب مبتسمًا:

- نعم سيدي .

- أين أصدقاؤك الأربعة؟، أذكر أن عددكم كان خمسة.

انكسرت نظرته.. طأطأ رأسه فارًا من أن تظهر دموعه.

- قتلوا اثنين واعتقلوا اثنين ولا علم لي أين هما الآن؟ ، لم يبق غيري سيدي.

خيم الصمت من جديد، أي كلام قد يُقال.. فعاد يُليان للحديث:

- أتقاومون؟ .. أريد أن أساعدكم، أريد حق أصدقائي.

العجز.. ذلك العملاق الذي يكسر عظامك ثم يلقي بك في زاوية زنزانة مظلمة، يظهر لك من بين الظلام بارزًا أنيابه، يهمس إليك *هيا.. هيا تعال وقاتلني* مستفزًا كرامتك، وأطرافك تخذلك.. تصرخ ألمًا فتلمع ثناياه انتشاءً.

حدثه سبستيان:

- ساعدني لنطبب *تيا*.

***

سيرين فتاة شابة تحمل عينين بُنْيَّتين حزينتين، طويلة القامة نحيفة ينام أسفل عينيها الليل.. خصلات شعرها الفاتحة تصل إلى خصرها، وبياض وجهها متشربًا صُفرة..

دخل غُرفتها *بيوس* رجلٌ طويل القامة شعره يصل إلى منكبيه مسترسلًا في انتظام، عريض الكتفين منحوت الجسد واثق الخطوات..

اقترب منها ملاطفًا بشرتها فانتفضت مبتعدة، نظرت إليه بحقد..

- ألن تميلي؟ .

- على جثتي .

ابتسم حتى بدت ثناياه:

- وماذا لو كان الأمر على جثة والاس؟ .

اتسع محجريها، تصلب الدم بعروقها..

- ماذا تقصد؟ .

- تعلمين ما أقصده .

- أهو في قبضتك؟ .

- وأستطيع عصره إن أردت.

- يا حقير .

وقفت تعتكز ضعفها، حاولت لكمه فأمسك معصمها متأملًا إياها بنظرات حادة ثاقبة، تربعت ابتسامة ساخرة على عرش شفتيه.. شعر بارتعاشها بين يديه، منتشيًا بانهيارها حدثها:

- انظري إلى نفسك، ما حيلتك؟ .

بعينين ثابتتين تأملت وجهه، لكن كلماته أصابتها بمقتل.. ازداد انهيارها فخانتها الدموع، نعم هي عاجزة حتى عن الدفاع عن نفسها، بكت بصمت ثم ارتفع عويلها، دفع بها في غضب.. صرخ فيها:

- أكملي إضرابك عن الطعام.. لن تخرجي من هنا إلا وقد نلت ما رغبت، وإن لم تليني فانسِ أمر والاس.

نأى تاركًا إياها للبكاء والانهيار، قبضت على فِراشها تنادي والاس بصوت مكتوم وقلب مكلوم وضعف ينهش جدرانها نهشًا.. تضرب الذكريات رأسها بمطرقة من ألم .

- والاس أنا خطيبتك، لم لا نعلن ذلك؟ .

- تعلمين موقفهم مني أليس كذلك؟، أنتِ نقطة ضعفي يا سيرين.. أخشى فقدانك ولا أريد لك الإيذاء، إن علموا بأمرك ستصبحين صيدًا سمينًا لهؤلاء.

تحشرجت أنفاسها من البكاء، حدثته وكأنه بالقرب *أنا الآن بين أيديهم والاس، أين أنت أحتمي بك من ضعفي؟ *..

***

بلاس مساعد *بيوس* حاكم أندروميدا والمتحدث باسمه، اجتمعا بمكان مغلق لمناقشة آخر أوضاع الكوكب.. بادر بلاس:

- الشعوب تغلي سيدي بعد نقص الموارد.. أخشى انفلات الأمر..

- لن ينفلت .

تعلم نريد صرفهم عنّا.. ولا سبيل لذلك إلا بإلهائهم بأنفسهم، لا علم ولا طعام.. سيسعون للحصول على ما يسد جوعهم مادام الطعام شحيحًا.

فلنفتح الباب قليلًا للموارد.. واخرج اتل عليهم نبأً سارًا، ليدعوا لحاكم أندروميدا الذي يحاول الحفاظ على أمنهم ويسعى لتوفير مواردهم برغم الخراب الذي ارتكبه العلماء .

***

لم يتفوه نضال بكلمة منذ أن التقوا الشاب *يُليان*، لا يعلم ما الذي تغير داخله.. ضميره يقذف به لشطآن هؤلاء؛ يشعر بأن عليه المساعدة وأن قدومه إلى هنا بالتأكيد لسبب فالله لا يرمي النرد .

الليل قد حل وارتفع قمر أندروميدا مُحَلِّقًا في سمائها يرصد الكبيرة والصغيرة، طرق نضال باب سبستيان فأذِن له بالدخول..

- سيد سبستيان، سأطلب شيئًا غريبًا أتمنى منك ألا ترفضه.

ترقب صامتًا فأكمل نضال:

- أريد الجلوس قليلًا معك بالأعلى.. بالسطح .

- الآن ، تعلم أن الأمر خطير.

- أعلم.. نستطيع التخفي أليس كذلك؟ .

استأنف يفكر، ثم حرك رأسه إشارة للقبول.. وكأن هناك شيئًا يريد قوله .

شعر نضال بالمدينة تضيق على صدره، تكسر عظامه.. تمنى لو يستطيع الهرب بعيدًا ولكن إلى أين؟ ، هو الآن في وجه أمر لم يكن يتخيل يومًا أنه سيوضع فيه.. عليه أن يقدم المساعدة لشعوب تلفظ أنفاسها الأخيرة بقبضة مجهولين يضيقون الخناق.

وقف على نفس التل الذي احتضن قدميه في اللحظات الأولى على هذا الكوكب، تُحرك الرياح الباردة رداءه المضاد للتعقب.. التقط نفسًا طويلًا يحمل البرودة لجوفه الذي يغلي من الهَمّ، علّ صدره يهدأ.. علّه يجد البراح الذي يبحث عنه، يتأمل أرض الموتى هناك.. وكأن المنازل المتآكلة تستغيث، وكأن بقايا حضاراتهم تصرخ في رأسه طالبة المساعدة.

سبستيان من خلفه يستمع لصمته، يعلم فيما يفكر.. ترك المجال لنفسه فتقوده للصواب، التفت نضال إليه في النهاية محدثًا إياه وقد عقد العزم:

- سيد سبستيان، سأفعل ما طلبته مني .

ابتسم حينها وقد ربت على كتفه في حزم ممزوج بفخر، أجابه:

- وأنا أعدك أن أعمل على المشروع بأقصى مقدرة لدي حتى عودة والاس.. سأعيدك إلى أرضك .

لم تُحرك كلماته شيئًا في نفس نضال، فالدافع أكبر من رغبته في العودة.. رُغم اشتياقه لزوجته ولوعته كلما تردد على عقله حالها بدونه الآن.. يعلم مدى حاجة هؤلاء للمساعدة، عليه المحاولة.. داخله يخبره بذلك .

***

الفصل الثالث

يوم يومان ثلاثة أيام وسارة لم تتصل ولم تذهب للعمل.. حاول الاتصال بها مرات ومرات ولا تجيب، ماذا عليه أن يفعل؟ .. هي عينيه وعقله هنا، لا يملك كيفيةً للتصرف بأمر الكتاب .

في اليوم الرابع بينما هو منهمك في عمله لمحها تدخل من باب المطعم متأخرة ليست عادتها؛ وقت الوردية الصباحية قارب على الانتهاء، سمعها تتحدث إلى رب العمل عن حالتها الصحية، ثم طلبت استلام الوردية المسائية وحدثته عن تعويضها للورديات الفائتة بكونها ستعمل ورديتين في اليوم.. كانت منهكة.. بياض وجهها متشربٌ صُفرة الإرهاق.

- سارة، كيف حالك؟ .

رفعت وجهها إليه وبنظرة عادية لا تحمل ضغينة ولا شغفًا أومأت برأسها دون حديث أي أنها بخير؛ ولا يبدو ذلك على الإطلاق .

بدا وكأنها ورغم التعب الذي هي فيه أرادت قتل نفسها في العمل فلا تفكر.. تقبلت رفضه ولكن هذا الأمر ولّد داخلها شعورًا سيئًا فوق تحملها .

مرّ اليوم دون احتكاك أو حديث بينهما، يتابعها بناظريه وهي تتحاشاه بكل الطرق ففي النهاية هو من كسر قلبها.. انتهت الوردية، بدل كلٌ منهما ملابسه وهمَّا بالخروج من المطعم، حملت حقيبتها مهرولة لا تريد أي فرصة بينهما للحديث، ناداها بالفعل.. التفتت إليه.

- سارة، أنا آسف لذلك الشعور الذي تسببت لك به.

لمعت عيناها بالدموع.. تماسكت، انكسرت نظرتها دون أن تجيب.

- سارة.. أنا أحتاج إليك، تعلمين ذلك جيدًا..

عادا للصمت.. زاغت عيناه توترًا فأكمل حينها:

- أعلم أن ما أقوله الآن ليس من حقي بعد ما فعلت، لك مطلق الحرية في الاختيار وسأحترم قرارك في النهاية، سأنسى أمر الكتاب وسأعيش كأن الأمر لم يكن .

تفكر في كلماته، تخشى أن تتعلق به أكثر من احتكاكهما بسبب هذا الأمر لن تتحمل رفضه لها للمرة الثانية؛ إدراك الأمر الآن خير من تطوره فلا يكون لها عليه تحكم، لكنها لا تريد تركه لذلك يواجهه بمفرده.. يحتاج لها بالفعل، تأملها مترقبًا إجابتها، رفعت عينيها الحزينتين إليه تحدثه:

- لن أتركك لذلك يا عبدالله .

لا تعلم ما مدى غباء قرارها هذا، فالأمر لا آخر له.. ولكنها أقدمت على ما حدّثها قلبها به وفقط .

***

توصلت سارة إلى عنوان الطبيب النفسي الذي ذكرته لها السيدة التسعينية *فلانتينا* ورتبت معه موعدًا.. في الطريق إلى عيادته حدثها عبدالله:

- ماذا إن كان ما نسلكه الآن ليس الطريق الصحيح؟، ماذا إن كان ما نهدره وقت ومجهود في الخلاء .

- لن نخسر شيئًا كما أخبرتك، ولكني واثقة أن بداية اللغز هناك .

كعادتها متفائلة، ما مرّ به عبدالله صنع وسواسًا عملاقًا تجاه أي أمر يبدأه، شاردًا في الطريق حتى توقفت السيارة أمام مبنى عملاق مكون من عدد كبير من الطوابق، حدثته أن عيادة الطبيب هنا.

استخدما المصعد الكهربائي حتى وصلا للطابق المقصود، استقبلهما الطبيب *بابلو كتركوف*.. بعد الترحيب أشار إليهما بالجلوس..

- كيف أساعدكما .

بادرت سارة بالحديث:

- سيدي، في الحقيقة أتينا لرغبتنا في بعض المعلومات الخاصة بقضية مريض باشرتها.

تبدل وجهه وكأنه لا يفهم إلى ما ترمي، أكملت:

- *سيرجي برامينجو* هذا الاسم ألم يمر عليك من قبل؟.

توقف برهة، هذه القضية لم يفتحها منذ سنوات، ما الذي يريدانه بالضبط.. حدثته سارة لتبعث إلى نفسه الاطمئنان:

- أنا وعبدالله نُعد مشروع التخرج خاصتنا عن أشخاص يقال أنهم مروا عبر الزمن، لا نريد إزعاجك فقط بعض المعلومات عن ذاك الشخص .

- ومن أخبركما كوني باشرت هذا المريض؟ .

- السيدة فلانتينا.

أظهر الاطمئنان ما أن سمع اسمها..

- حسنًا، ما الذي أستطيع تقديمه؟.

- نريد فقط أن نعرف ما حدث تفصيلًا؟ .

تكعكع قليلًا يسترجع ما مضى.. أمسك القلم أمامه على المكتب عابثًا، طرق به عدة طرقات ثُم بدأ بسرد ما جرى..

بواحد من الأيام لعام 2006م اتصل بي واحد من رجال الشرطة وحدثني عن شاب ما تم العثور عليه مرتديًا بذلة من الخمسينات ولديه أوراق إثبات شخصية قديمة جدًا تائهًا يهذي ويريد مني معرفة إن كان مريضًا عقليًّا أم لا، وافقت.. أحضروه إلى عيادتي.. كان مظهر الشاب يوحي أنه لم يتجاوز العقد الثالث من عمره.. بدأت الحديث معه

- ما اسمك؟

- سيرجي برامينيجو.

- سيد سيرجي، هل يمكنك إخباري في أي سنة وُلِدت بالضبط؟.

- السادس والعشرون من يونيو لعام 1932م.

- تعلم سيد سيرجي أن معنى ما تقوله الآن أنك قد تجاوزت السبعين عاما؟ .

زاغت عيناه، بدا عليه التخبط وكأنه لا يعي ما يحدث، حينها أكملت:

- أخبرني أي تاريخ تتذكر، آخر لحظة تعيها؟.

- كل ما أتذكره أني كنت بالثالث والعشرين من إبريل لعام 1958م وقد قاربت حينها على اتمام خمسة وعشرين عاما، أذكر إني كنت أجرب كاميرتي الجديدة هذه.. وفجأة ظهر رجل غريب وكيان في السماء لم أستطع تحديده ثم وجدتني هنا لا أعرف أين أنا .

- تعلم أننا في الثالث والعشرين من إبريل لعام 2006؟.

- قال لي الشرطي ذلك، لكن صدقني ما أقوله هو ما حدث بالضبط .

بدا على سارة التأثر؛ تأثر مصحوب بصدمة مما تسمع، الآن أمسكت طرف خيط، فما أن انتهى الطبيب من الحديث حتى طرحت سؤالًا آخر..

- سيدي ألم يذكر شيئًا عن الغريب الذي قابله؟.

- نعم.. تحدث في وصفه أنه كان يحمل كتابًا غريبًا وأن للكتاب قفل غريب عليه نقوش.

اندهش عبدالله فالكتاب بالفعل به جزءٌ مرتفعٌ يحمل نقوشًا، لكن كيف له أن يكون قفلًا وهو ملتصق به .

عادت سارة بسؤال جديد:

- أخبرتني أيها الطبيب أنه كان يحمل كاميرا أليس كذلك؟.

- نعم

- أين يمكننا أن نجدها؟.

- هناك خبير ما اختصته الشرطة بتحليل الصور ودراستها.

- هل يمكننا الحصول على عنوانه رجاءً؟.

تمهل الطبيب قليلًا وكأنه يفكر .

- هذا منذ زمن .. لا أعرف إن كنت سأجد المعلومات الخاصة به .

- سيدي رجاءً .

شرد وكأنه يحاول أن يتذكر شيئًا ، ثم حدثها:

- سأبحث أعدك وسأتصل بك إن توصلت لتفاصيل الوصول إليه.

خابت نظرتها، لا تعرف إن كان سيفعل بالفعل أم لا .

- أريد أن أسألك آخر سؤال، ما الذي حدث للسيد سيرجي بعد ذلك؟.

- لا أعرف .

- كيف لك ألا تعرف؟.

- حقًّا لا أعرف فقد اختفى، في البداية شخصت حالته على انها *توهان عدم اتزان في الوقت*.. حتى أتى هذا النهار الذي لم نجد له تفسيرًا إلى يومنا هذا.. فقد ظل بغرفته تحت المراقبة فتحت الممرضة الباب لم تجده، قمنا بتفريغ الكاميرات ولم نجد أي باب تم رصد خروجه منه، وللآن لا تفسيرَ منطقيٌّ .

غادرا العيادة على عَجَل بعد أن أنها لقاءهما مع الطبيب، الأمور تتضح شيئًا فشيئًا.. سارا حتى وصلا إلى أحد المقاهي القريبة ثم طلبا القهوة.. بادر عبدالله:

- تظنين أنه سيهتم للأمر بالفعل؟.

- لا أدري ولكن.. من المفترض أنه طبيب مشهور مما يعني أنه يلتزم بكلمته.. سنرى الأيام المقبلة بالتأكيد.

عاد عبدالله لشروده مديرًا وجهه فالتقطت سارة جانب وجهه، فتح عقلها التفكير في أمره فارتفعت دقات قلبها، عَلمت حينها أن الأمر لم ينتهِ بعد.. التفت إليها فتجمدت ، حدثها بصوت هادئ:

- أهناك شيء؟.

عضت شفتها السفلى ضيقًا، حدثته بعد وهلة من الصمت:

- عبدالله أريد المغادرة.

- هل فعلت ما أثار ضيقك؟.

- من فضلك..

أومأ برأسه في أسى.. أوقف سيارة أجرة فولجتها، هَمَّ أن يلحق بها فأوقفته:

- أريد أن أكمل الطريق وحدي إن سمحت .

جلس إلى جوارها محدثًا إياها:

- ولكني لا أريد .

طلب من السائق الانطلاق، تحتاج لأن يبقى حقًّا وإن صرحت بغير ذلك فلا امرأة تفضل الوحدة في انهيارها وإن صرخت فيك بالنأي .

لا أعرف إن كان عبدالله فعل ذلك عن قصدٍ معها أم بفطرته، ولكنها ستظل ممتنة للحظة تَحَمَّل فيها ضعفها ولم يتركها وجبة وحيدة للألم .

***

وفي ليلة حالكة السواد لم يسطع فيها سوى قمر المراقبة لأندروميدا ضُرب باب يُليان، لم يكترث في البداية ولكنه ومع تكرار الطرق نهض من فِراشه.. تأمل الخارج من ثقب في بابه فلا جهاز مراقبة سليم مع هذا الفقر المُدْقِع، وكأن على عينه غشاوة؛ ففركها ليتأكد مما رأى.. همس باندهاش *يوجين؟ *.

فتح له ثم وقف يتأمله، هزيل شاحب ومنهك حالته يُرثى لها.. ضمه إليه يعتصره حتى كاد يكسر عظامه فبادله العناق بذراعين ضعيفتين..

طلب منه الدخول ثُم أجلسه، أحضر له بعضًا من الأطعمة الجافة الآيلة للفساد فهذا كل ما هو هُنا، انهال عليها يأكلها بشهية وكأنه لا يشعر بطعمها ولم تداعب أغشيته رائحتها، لم يصرف يُليان ناظريه عن صديقه.. وما أن انتهى من طعامه حتى رفع وجهه إليه؛ حدثه:

- نحن أموات يُليان .

ابتسم، هزّ رأسه ثُم أستطرد:

- بعد أن قتلوا صديقينا هِمْتُ بين القوم بنصف روح، وفقدت النصف الآخر بعد أن اعتقلوك أنت وإدوارد.. والآن ما أن رأيتُك عاد إليّ الأمل.. لن نموت، لأننا لن نكُف عن المحاولة يا يوجين .

امتلأت عيناه بالدموع، انفرطت وكأن لا سلطة عليها.. حدثه بصوت مكسور:

- اغتصبوا روحي، أنا أجوف تُصَفِّر داخلي رياح خبيثة.

- لن أتركك لليأس، سنُعيد ما كان .

عاد لضمه فشعُر بجسده ينتفض بين يديه، أنينه يحكي أهوالًا مَرّ بها هناك.. على الجانب الآخر من الوطن حيث الأسياد يحيون على أشلاء هذا الشعب..

أراد لو يسمع منه كل ما مَرّ به، لو تحكم في طاقة غضبه فلا تحرقه وتحرقهم وحدهم.. ولكنه على علم بأن الأمر سيحتاج لوقت.. وقت قد يطول .

***

- نفدت العُملات؛ والطعام في طريقه للنفاد هو الآخر..

قالتها *تيا* بينما تفتش خزائن المطبخ المتآكلة، أغلقتها بغضب ثم وضعت يديها في جنبها تعبيرًا عن استيائها، أكملت:

- علينا أن نعود للعمل بالسطح لنقتات.

ترك سبستيان ما في يده ثم تأمل نضال رافعًا إحدى حاجبيه، سأل نضال:

- ماذا؟ .

- ستساعدها ككل مرةٍ والاس .

عندما ذكر اسم *والاس* فَهِم أنه يشير إلى أمر روتيني كان مجبرًا هذا الشخص على فعله وعليه أن يحذو حذوه.

لاحظت *تيا* صمته، لم يبرز أي ردة فعل فبدأت بمضايقته والسخرية منه..

- أرى أن يبقى السيد والاس بالمنزل والخادمة ستأتي له بالطعام .

كشفت عن ثناياها مكملة حديثها في هدوء:

- لن تعمل.. لن تأكل..

أوقفها سبستيان:

- اهدأي تيا، والاس لم يعترض حتى .

- ولن أسمح له بالاعتراض .

أعطتهما ظهرها تتجهز، رفع سبستيان كتفه في استسلام، أما نضال ظل يتأملها حتى اختفت عن ناظريه.. هي مجرد امرأة شرسة مجنونة لا يجوز أن يأخذ أي كلمة منها على محمل الجد، مهما قالت لن ينفعل من قولها أبدًا .

على السطح سألها:

- أي الطرق سنسلك؟

- من هنا .

أشارت إلى طريق يحمل ناقلة بها الناس كالسردين في العُلب فوق بعضهم بعضًا..

- هذه الناقلة ستنقلنا إلى حيث مخازن الأطعمة التي اقترب موعد انتهاء صلاحيتها.. نقوم بنزع الهالك والمتحلل والبقية ننقلها إلى سيارة تقوم بتوصيلها للسوق.. افعل كما أفعل ولا تنزع عنك رداءك فيكشف أمرنا الآليون .

هَزّ رأسه بالإيجاب، استقلا الناقلة.. توشك فيها على فقد حياتك فجموعهم تلتهم الأكسجين.. مساحة ضيقة تقف فيها تكاد تحتوي قدميك وباقي جسدك هناك أكثر من خمسة أجساد تطبق عليه.. التقطت تيا كفه تضغط عليه في خفة، فَهِمَ حينها أنها ترمي إليه بالصمود فلا يكشف أمره.

توقفت الناقلة أمام مبنى عملاق متآكل من الخارج تفوح منه رائحة نتنة لم يستطع نضال تحملها، ثارت أمعاؤه حتى كاد أن يتقيأ، تماسك فلا يختل أو يلفت النظر فمن المفترض أن هذه الرائحة معتادة هنا بل تثير غريزة الجوع لدى جوعى الخارج .

انتشروا بالداخل.. أكوام من الأطعمة الفاسدة جنبًا إلى جنب، جذبته تيا إلى إحداها وبدأا العمل.. تناول واحدًا من قطع الخبز المنتشر بها العفن بتقزز يتأملها ثم هام بناظريه بين هؤلاء .

أهؤلاء أموات حقًّا؟ أم يسيرون نيامًا فلا يشعرون بما يفعلونه الآن؟ ، محاجر فارغة وأوجه بائسة أكثر ما يشغلها حصتها من الطعام الفاسد نهاية اليوم.

غمزته تيا أن يتابع عمله ، ينزع المتآكل بفعل الحشرات والرخو والمتماسك يلقي به بعيدا، يفصل اللحم الميت الصحيح عن الجيفة، وإن التقط منه الرائحة فهو أهل للأكل فلا بأس .

في نهاية اليوم أخذ كل منهم حصته وبعض العملات الالكترونية، حمّلت الناقلات الأطعمة التي تم فصلها إلى السوق للاستهلاك الآدمي، شعب أندروميدا لا يجد ما يسد الرمق لن يقول لا .

عادا بشاحنات تموج بالعمال، كل منهم راض بما جنى فسيعود لبيته حاملًا الطعام.. خرجا يسيران تيا أمامه وهو يتبعها، لم يُعَلِق.. فتحت البوابة ثم عَبرا من خلالها.

- سبستيان أحضرنا الطعام .

حضر مبتسمًا، تأمل وجه نضال الحزين.. حملت تيا أشياءها ودخلت للمطبخ..

- متى سينتهي هذا الكابوس وأغادر هذا المكان؟.

ابتسم سبستيان لحديثه..

- مَلِلَت من بضعة أيام فقط؟، نحن في هذا منذ سنوات ، أندروميدا لم تكن ما تراه أنت

الآن، استطاعوا تحويل الناس إلى آلات فارغة من العقل .

أنا أعمل على مشروع نقلك وعندما يأنِ الوقت سأدعك ترحل فلا تقلق .

يثق نضال بسبستيان ولا يعلم السبب لذلك، كل ما عليه أن يفعله الآن الصبر والمحاولة مع هذا الشعب البائس إلى أن يترك هذا المكان .

***

- أمي .

وكأنها تتخيل الصوت، أمعنت السمع.. تهمس لنفسها *أهذا يوجين؟ *.. كرر نداءه فخشيت الالتفات فيخذلها السراب..

- أمي أنا يوجين .

قالها بصوت شجن يحمل ضعف الدنيا فامتلأت عيناها تفيض بالدمع، التفتت إليه بقلب يعتصر اشتياقًا.. رمى نفسه بين ذراعيها منهكًا هاربًا من كل ما دار .

- يوجين.. أعادوك إليّ يا حبيبي؟ .

لم يجب، لا تعلم إن كان هو من بالسابق أم لا ولكنه الآن هنا، تهدهده وتبكي.. تئن، يروي أنينها كم عانت في غيابه عنها..

لم تره مذ ثلاثة سنوات، أخفاه عنها *بيوس* منذ أن كان في الخامسة عشر، لا مجال لرؤيته.. لا مجال لسماع صوته ولا مجال لمعرفة ما ألَم به .

كل ما كانت تفعله أن تدعوا الله ليحفظه من هؤلاء وتبكي بكاء المضطر بقلب لا ينطفئ ولا يسكن .

- حدثني يا يوجين عن أيامك هناك، أكنت تستطيع النوم؟.. ماذا فعلوا بجسدك .. ماذا كانوا يطعموك..

- انسِ يا أمي فأنا نسيت .

- وكيف لي أن أنسى ألم صغيري؟.

- أنا بخير، فقط لا تفلتيني.

ضمته إليها أكثر، غارقان في الصمت، صمت يروي أيامًا من البكاء والفقد والاشتياق.. لم ينس يوجين ولن ينسى ، همس لأمه بما يروي قلبها ولو كان وجد سبيلًا للنسيان لما تردد أبدًا .

***

أمر *بيوس* بإحضار سيرين لمائدة الطعام، عليها أنواع شتى أحضرها جُنده.. أجلسوها

غصبًا ثَّم غادروا المكان.

جلس على كرسيه يتأمل نظراتها الخائفة وعينيها المتورمتين من كثرة البكاء ثم استطرد:

- عليكِ أن تطعمي نفسك.

قَطَّعَ شريحة اللحم أمامه بسكين ثم التقطها بالشوكة، رفع كأس النبيذ إلى فمه، تجيبه بالصمت فأكمل:

- تريدين الموت أليس كذلك؟

تعلمين؟ .

أستطيع أن أناديهم بالخارج، فيجعلونكِ تتجرعين الطعام بمنتهى السهولة خاصة في حالتك الضعيفة هذه، لا مقاومة لديكِ..

كما أنني أستطيع أن آخذكِ غصبًا ولكني أيضًا لن أستمتع بذلك ، أحب تناول فريستي على مهل .

أسدل الصمت ستائره، ارتفع صوت ارتطام شوكته بطبقه، حدثته:

- أريد رؤية والاس، دعني أراه ولو لمرة واحدة .

ابتسم ساخرًا..

- لبي طلبي سترينه .

وفي كل مرة يساومها على ذلك يضيف طعنة نافذة جديدة إلي قلبها المخضب بالجراح، في حالتها بماذا عليها أن تجيب؟ ، كيف لها أن تهرب من ألم قلبها واشتياقها ومن عذابها بما يُمارسه عليها بيوس.. أتتخلى عن والاس؟.. لا تستطيع فالموت أهون.

- أريد الذهاب إلى المرحاض.

وكأنها إجابة لعرضه، أرادت متسعًا للتنفس.. أشار لها بالذهاب، المرحاض مُلحق بغرفة الطعام جزء لا يتجزأ من الغرفة المغلقة، يعلم أنها لن تستطيع الهرب حتى ولو حاولت فسمح لها بذلك.

خفضت رأسها تتقيأ فلم تتحمل سماع كلماته المقززة.. أثارت حمض أمعائها، تأملت وجهها بالمرآة ولا دموع.. أضَعْفَهَا السبب في ذلك؟، لم يعد لديها المقدرة حتى على البكاء .

دخل بلاس غرفة الطعام على عَجَل، حدَّثَ بيوس بصوت شبه مسموع يمتلئ رعبًا:

- رصد الآليون وجه والاس بالسوق .

نهض بيوس في غضب ينهره:

- اخفض صوتك ، والاس قد تم إعدامه وأنا بيدي فعلت ذلك والأمر أمام عينيك قد كان ، لا يعرف هذا سوانا فلا تهذي بالغباء، قد يكون من يشبهه لا أكثر .. انصرف الآن وسنتحدث في ذلك .

خرج من غرفة الطعام وسيرين ثالثهما.. سمعت كل ما دار، بيوس قتل خطيبها وحبيبها والرجل الذي صبرت على الهوان على أمل لقائه، لم تتحمل وكأنه كابوس بشع، تمنت لو أن ما سمعت ليس سوى هذيان ضعف..

طال انتظار بيوس، اقترب من المرحاض.. ناداها لم تجبه فطلب من الحراس كسر الباب فوجدها طريحة الأرض فاقدة للوعي، لم يأت في باله خاطرة عن كونها سمعت شيئًا، كل ما ظنه أن إضرابها ما تسبب في ذلك.. أمر بنقلها إلى غرفتها..

فتحت عينيها بوهن لا تعي ما دار ولا تتذكر.. تأملت جوارها لتجد محاليلَ ما تتصل تلقائيًّا بعروقها وامرأة أربعينية إلى جوارها، دبت الذاكرة بأعصابها فأنعشت الألم، انفجرت سيرين باكية بكل ما لديها من ضعف والمرأة إلى جوارها تتأملها مشفقة عليها.. مسحت على شعرها هامسة:

- لا بأس عليك يا ابنتي، لا بأس .

صرخت سيرين من الألم، ألم لا تعي ماهيته أو مصدره؛ تُبعد راحة المرأة عنها.. تشعر بالخوف.. خوف ينهش كل ذراتها والأخيرة هناك تتأملها في حزن .

- لا تخافي أنا لن أؤذيكِ.. اهدئي .

بكت بدمع الغمام تنادي والاس دون وعي، تردد *قتلوك والاس.. قتلوك يا حبيبي*.. تغيرت ملامح المرأة.. بقيت إلى جوارها حتى غرقت بنوم عميق .

دخل عليهما بيوس وتأمل سيرين النائمة بوجه شاحب وجسد منهار، حدث السيدة:

- مازالت فاقدة الوعي؟ .

أجابت بعد وهلة:

- نعم.. لم تفق بعد.

عاد بعينيه إلى سيرين يتفحصها ثُم خرج تاركًا إياها.. مسحت السيدة على رأسها في عطف تحدث نفسها *أي قَدَرٍ أوقع من مثلها بين يدي بيوس ، وأي والاس تقصد *.

***

بعد أن اتصل السيد *بابلو* بسارة مليًا أرقام الهواتف والعناوين التي يمكن أن يجدوا فيها المختص بصور سيرجي؛ قامت بعمل بحث على الانترنت بخصوص الأمر فلاحظت شُح

المعلومات وكأن هناك من يقصد إخفائها، أمر كهذا من المفترض أن ينتشر .

رتبوا مقابلة معه، له معمل بدائي إلى حد ما، ستيني نحيل يمتلك لحيةً وشاربًا يغزوهما الشيب، دخل عليهما من خلال ستار أزاحه يفصل بين مكتب على الطراز الحديث ومعمله.. ابتسم إليهما مرحبًا..

- تُريدان معرفة قصة الصور أليس كذلك؟.

بدا وكأن السيد *بابلو* شرح له الأمر، وإلا ما وافق على مقابلتهما وفتح الموضوع معهما وهو لا يعرف عنهما أي شيء .

- تعلمان؟، أنا أيضًا تُحيرني القصة منذ أيام الحادث، أصدقها جدًا.

ابتسمت سارة:

- وما الذي جعلك تصدقها؟.

- الكاميرا التي كان يمتلكها كاميرا بدائية توقف صُنعها في السبعينات، عندما أخرجت الفيلم وقُمت بتحميضه الصور كانت سليمة وكأنها مًلتقطة بالأمس .

- وما المشكلة في ذلك؟، ألا يمكن مثلا أن تبقى الصور لعقود طويلة؟.

تكعكع، شبك أصابعه ثم تنهد..

- هذا النوع من الكاميرات لا تبقى الصور فيه لأكثر من عقدين ، المادة المصنوعة منها مشبعة تتفكك، فكان مستحيلًا أن تخرج الصور بكامل هيئتها هكذا .

ساد الصمت، بادر عبدالله:

- ألا يمكن أن نرى الصور؟ .

عاد الخبير لصمته، يعلم أن الأمر ممنوع من الحديث عنه لكنه لم يصرح..

- الصور ليست عندي، كل المقتنيات تحصلت عليها الشرطة واغلقوا القضية من يومها وطلبوا عدم التحدث في الأمر.

تعلم سارة أن مثل هذه الصور يستحيل أن تمر على رجل فضولي مثله ولا يحتفظ منها بنسخة، حدثته:

- ألا تملك نسخة منها مثلًا ، نحن نحتاج إلى هذه المعلومات للضرورة.

أطلق تنهيدة يفكر..

- حسنًا، لكن عِداني أن الأمر لن يخرج من بين ثلاثتنا.. أنا لا أثق بأحد ولكن أنتما من طرف واحد من أهم أذرع القضية قبل إغلاقها.. الطبيب كتركوف .

وضَّحَت سارة أنهما يحتاجان المعلومات لأجل مشروعهما فقط وليس هنالك أي مصلحة لتسريبها فبدا عليه الاقتناع..

دخل إلى معمله ثُم أحضر صندوقًا، خرج لهما ثم فتحه وبدأ في إخراج الصور واحدة تلو الأخرى وهما يتابعان بدقة بالغة، بينما عبدالله يتأمل واحدة من الصور حتى اتسعت عيناه اندهاشًا.. أشار إلى سارة *انظري*..

فهمت إلى ما يرمي، بواحدة من الصور ظهرت هيئة لظل رجل يشبه ذاك الرجل الذي ظهر بشقته وترك له الكتاب.. تابعا الصور فظهرت في إحداها فجوة سوداء في السماء، هكذا بدأت الرؤية في الوضوح، رمز ما بدا في الفجوة يشبه حرف ال N في الإنجليزية.. هذا الرمز يعرفانه جيدًا فهو واحد من رموز الكتاب، وبعد أن جمعا ما لاحظانه التفتت سارة إلى الخبير متصنعة:

- هذا أمر محير جدًا، نحن شاكران لك على مساعدتنا سنعمل على المشروع بالمعلومات التي اكتسبناها..

أشارت إلى عبدالله بالانصراف وفي رحيلهما بدا على الخبير وكأنه لا يقتنع كونهما طالبين يعملان على مشروع، يُخفيان شيئًا ما. هذا ما يشعر به .

أخرجت سارة هاتفها النقال فسألها عبد الله:

- ماذا تفعلين؟ .

- أدون الملاحظات التي لاحظناها بالصور حتى لا أنسى، الرجل يرسل علامة لشيء ما.. هذا هو الرجل أليس كذلك؟

- نعم .

- عبد الله، وكأنه يعرف أننا سنحاول البحث.. ويعلم أننا سنرى الصور .

بدا عليه الحيرة، يريد أن يعرف مَن هذا الرجل وماذا يريد بالضبط وكيف لهما من أول محاولة أن يصلا إلى بداية الخيط .

- أقدار .

التفت إليها، أسمعت ما يجول بخاطره أم دار بخلدها ما دار بخلده ؛ ثُم ابتسمت:

- كقدر لقائي بك ولا فكاك .

اختنقت الكلمات بصدرها لا تقصد أن تقول هذا ولكنها وهي معه لا تستطيع، صامت يستمع ولا يجيب.. أكملت:

- لنعد إلى شقتك، أريد النظر في أمر كتابك .

يسيران ولا يبدو أنهما بمفرديهما، أحدهم من بعيد يتابع..

وصلا إلى الشقة، فتح عبدالله الباب ثم أشار إليها بالجلوس.. أحضر الكتاب ووضعه أمامها تقلب فيه وتقلبه، بدأت تبحث عن شيء ما، لاحظت جزءً يأخذ وضع الحفرة في ظهر الكتاب في حجم عقلة الإبهام.. ملأتها بإبهامها ولكن الحفرة أكبر..

- عبدالله أنظر.. هل يمكنك الضغط هنا بإبهامك؟.

وضعه وكأن الحفرة خصيصًا له، تحركت بعض الرموز على الكتاب ما أن ضغط بإبهامه ثم ظهر ارتفاع مستدير وسط إحدى ضفتي الكتاب يحمل حروفًا شبيهة بالإنجليزية على جوانبه، ثنتيهما مذهولان الأمر لا يصدق وكأنه من الخيال.. اقتربت سارة من الكتاب.. استطردت:

- هناك إشارة بجانب الارتفاع.. الحروف هذه ألا تشبه الحرف الذي بدا في الصور؟.

حَركت حرف الN ليكون مقابلًا للسهم ، بدأت الرموز تتغير ثُم انفتح واحد من أقفال الكتاب..

- عبدالله.. هذه أقفال، ثلاثة أقفال.. انفتح واحد، أظن أن هذا الارتفاع مفتاح.. نحن في الاتجاه الصحيح..

إنجاز ما فخورة به، كانت تتحدث كطفلة أنهت واجبها المدرسي القميء للتو ، ابتسم عبدالله متنهدًا وكأنه لا يصدق أنهما بالفعل في طريقهما لحل هذا اللغز .

- هذا الرجل عابر للزمن، أنا أصدق هذا الآن.. علينا البحث في هذا الاتجاه.

أومأ برأسه، يبدو أن سارة المجنونة معها كل الحق، العقل في مثل هذه الأمور رتابة لا تفيد.. عليه أن يصدقها هي أعلم بصواب الطريق .

***

سيرين بين غفوة وإفاقة، والمرأة جوارها تتابعها حتى استيقظت في النهاية، حاولت ألا تُظهر مصابها فالكل هُنا تحت إمرة بيوس..

بينما تهندم السيدة وسادتها من خلفها وتعدلها في جلستها ظلت تتأملها.. قطعت صمتهما الطويل تحدثها:

- مَن والاس؟.

تجمدت سيرين، فأكملت السيدة:

- كنت تهذين في انهيارك باسم والاس الذي قتله بيوس.

انكسرت عيناها من جديد، امتلأت بالدموع.. همست الوساوس برأسها عن المرأة التي

ستوشي بها.. مَرّ طيفها قتيلة أو مُعتدى عليها وهو الاحتمال الأقرب فهذا ما يسعى إليه ذاك الغاصب ، لا ألم يفوق ألمها الآن، لم يعد هُناك ما تخشاه .

وكأنها سمعت ما دار بخلدها..

- لم أُخبر بيوس بشيء ولن أخبره ..

عادت سيرين لتأملها متعجبة، أي مقابل تريده هذه المرأة .

- اسمعي يا ابنتي، أنا هنا لأعيش ولا يعني ذلك أني راضية عما يرتكبه هذا الرجل..

قاطعتها سيرين ساخرة:

- لولاكم ما كان هنا ..

شقت الكلمة مسامع السيدة:

- لو لم أفعل لقتلني.. أوقتل ابني، أنا هنا لأحميه .

- ذات نهار، سيأخذ بيوس ابنك من بين ذراعيك ويقتله أمام عينيك، ستصرخين من العجز وحينها لن يسعفك أحد..

سيقف معاونيه الذين يخفون داخلهم كرههم له ولظلمه ولفعلته صامتين يشاهدون.. ستتأملينهم بحقد دفين، وحينها ستعلمين شعوري الآن .

الكلمات آلمتها، هي محقة .. لولا كل فرد هنا ما كان بيوس ما عليه الآن ، غرقت في الصمت.. رفعت عينيها إلى سيرين في خجل.. يبدو أن بيوس فتح لها جُرحًا لن ينغلق .

وفي نهاية اليوم حدثتها:

- أنا أدعى آليس في خدمتك إلى أن يتم شفاؤك.. إجازتي غدًا سأغادر وأعود إليك بعد غد..

سيدة سيرين لا تتحدثي عن والاس أمام أحد .

لم تلتفت إليها ولكنها وضعت كلماتها في الحسبان، غادرت السيدة آليس تاركة سيرين غارقة في عالمها حيث والاس لم يغادر، والكوكب بخير.. وما تمر به مجرد كابوس .

رسائل وعلامات تخبرك بأن الطريق خاطئ، عليك تركه أو تغييره.. لم تكف السيدة آليس عن التفكير طيلة الطريق، حدثت نفسها *حتى إن تركته، ما الذي عليّ فعله *، وصلت بيتها ودخلته.. استقبلتها ابنتها *فيكتوريا* ذات الثمانية عشر عاما.. لاحظت شرودها..

- أمي ما بك؟، أحدث ما ضايقك .

أدارت وجهها وكأنها تستيقظ من الشرود..

- لا.. أين أخاك *جهاد*؟

أشارت إلى غرفته فساقتها قدماها إلى هناك حيث أشارت أخته، فتحت عليه الباب.. جهاد شاب يافع يبلغ من العمر ثلاثةً وعشرين عاما، طويل القامة قوي البنية.. له من الشيم ما تتوسم بها فيه بالذكاء.. نائمًا .

تأملته أمه وبعقلها تقفز كلمات سيرين.. آلمها فؤادها وامتلأت عيناها بالدموع فلم تتخيل فكرة فقدانه فقد عانت الكثير في سبيل تربيته هو وأخته، انقطعت وصلة نومه.. استيقظ على صوت بكائها المكتوم..

- ماذا يا أمي؟ .

مدّ يده إليها فاقتربت من فراشه، جلست مقابلًا له فربت على كتفها ثم قبل رأسها في محاولة لاحتواء حزنها..

- أخبريني ما الذي حدث؟ .

في البداية تمنعت ومع إلحاحه حدثته بما دار ، استمع إليها يفكر مليًّا وما أن انتهت استطرد:

- أأتحدث؟ .

أومأت برأسها..

- معها كل الحق .

وكأنه طعنها بسكين، كيف له أن يكون عليها.. حزنت ثم تمتمت بكلمات الغضب:

- تلومني.. أنا فعلت ذلك لأجلك وأختك.. أنا أخشى أن يقتلكما بيوس، ألا ترى ماذا يفعل بمن يعارضه.. أحاول أن أكون في ركبه حتى أحميكما .. أهذه النهاية؟ .

كانت كقنبلة محكمة وانفجرت.. في النهاية أم تحذو حذو الأمهات، استقبل غضبها في هدوء ثم حدثها:

- أمي أنا لا أقصد ما وصل إلى ذهنك.. أنا أخبرك كونها محقة، تعلمين أني معارض لعملك مع هذا الرجل وأني رفضت العمل معه .. أعمل كأي شاب في أرض أندروميدا وأقتات من مخازن الطعام..

صمتت طويلًا ثم وضعت وجهها بين كفيها تبكي، الكلمات أيقظت ضميرها.. تمنت لو وجدت ما يهدئ ثورتها عند ابنها الذي طالما اتخذته صديقًا لرجاحة عقله ولكنه أشعل قلبها أكثر .

- ماذا عليّ أن أفعل؟ ، أترك العمل؟ .

- لا .

رفعت وجهها إليه تحاول الاستيعاب، مسح عنها دموعها ثم أكمل:

- لو تركتيها ستموت ، سنحاول مساعدتها ما رأيك؟ .. سنستغل بيوس لصالحنا ولن نكون في صالحه..

تابعيها يا أمي.. لا تكوني مع بيوس عليها دون قصد منك، من يدري لعل هذا طريق تمنينا الوصول إليه فرمته الأقدار في طريقنا.

هدأت بعد أن سمعت كلماته، هو محق.. احتضنها حتى سكنت أنفاسها التي اضطربت من البكاء.. همس إليها بأن *لا بأس، كل الأمور ستكون بخير*.

قاطعتهما فيكتوريا متحدثة:

- أنا جائعة، أسنكمل اليوم بدون طعام؟ ..

ضحك *جهاد* فرغم كونها شابة صغيرة إلا أنها لازال عقلها عالقًا هناك حيث طفولتها، لا تعي ما يدور حولها ولا أي مصيبة الناس فيها .

نهضت آليس تعد بقايا الطعام التي حملتها من مقر الحاكم، أكثر نظافة وأمنًا من طعام أندروميدا ، فلا يأكل الحاكم مما يُطعم منه رعيته.. حتى وإن نعق بغير ذلك.

***

أيام تمر، طال انتظار يوجين لصديقه إدوارد الذي قاسمه زنزانته وهوّن عليه سنين اعتقاله حتى أتى ذاك اليوم الذي أعلنوا فيه عن أسماء فئة جديدة قُتلت تحت إشراف بيوس والمسمى أتباع العُلماء القتلة المخربين .

تردد اسم إدوارد على مسامعه وكأنه لا يعي أو غير مصدق ، انفجر باكيًا كطفل صغير.. طعنة جديدة نافذة لقلبه الذي ظنه ميّتًا ، لازال هناك دموع.. لازال هناك المزيد وقد ظَنها جَفت مع جَفاف مشاعره بفعل الظُلم.. همس إلى نفسه:

- إلى متى؟ .. إلى متى؟ .

حَملته قَدماه حيث يُليان.. باكيًا ودموعه لا تتوقف، الكثير من الكلمات داخل صدره لا سبيل لخروجها .

***

استقبل يُليان الخبر بما لا يقل عن يوجين من صدمة.. سنوات وهو منتظر؛ خُروج يوجين أعطاه الأمل بأن الغد لم يمت ومات نصفه بموت أحد الاثنين .. جلسا صامتين، أي عجز هذا يضاف إلى القديم؟ .. قطعة جديدة من القلب تُسرق وقلة الحيلة سِجنٌ أكبر مِن سجن بيوس ، وحش ينهش بجدران الأحرار بمخالب من جمر .

مسح يُليان دموعه باحثًا عن سبيل للمحاولة، حَدَّثَ صديقه بصوت مشروخ وابتسامة تحتضر:

- تتذكر المُعلم سبستيان؟.

هز رأسه بالإيجاب..

- سنذهب إليه .

لا يفهم، تأمله بنظرة تائهة فقطع حيرته وأكمل:

- يسكن مدينة لا يعرف عنها بيوس، التقيته.. أعطاني مفتاحًا وطلب ألا أستخدمه إلا للضرورة فلا يتعقبني أحد..

هي محاولة يا يوجين.. علينا أن نحاول .

أخرج من جيبه جهازًا صغيرًا يشبه ذاك الذي استخدمته تيا، حركه في الهواء يفتح جدارًا لا يُرى.. عَبراه .

***

- يُليان ما بك؟ ، ماذا هناك يا بني؟..

قالها سبستيان وهو يتأمل بكاءه، لم يستطع أن يتماسك أمامه ..

- اهدأ يا فتى..

التفت إلى الشاب صاحب الملامح الجامدة إلى جواره، ليست غريبة عليه .. لم يتعجب سبستيان من كون غريب في المدينة مع تلميذه فهو لن يجلب خائنًا، كل ما كان يفكر فيه وقتها مع تشتيته لبكاء يليان هو إن كان يعرف الشاب إلى جواره .

- سيد سبستيان، تتذكرني؟ .

- يوجين؟ .

انفجر حينها باكيًا، وكأنه عند باب سبستيان تذكر أيامًا كانوا فيها أعزاء.. يحاولون امتلاك الغد فاحتل الغد بيوس .

ربَت سبستيان على ظهره في محاولة لتهدئته.. حدثهما:

- اشتقت لكم .

- قتلوا إدوارد

سيدي هو الآخر، قتلوه .

احتل الغم قسماته وما لبث أن ضعف حتى حدثهما يشد على يديهما :

- الرجال إن سقطوا يجعلون من سقوطهم انطلاقة ، ابكيا كما تريدان الآن لكني لن أسمح بذلك غدًا ..

أعلم مدى الشرخ داخلكما ، لنحاول البحث عن سبيل إلى أن نجده.. حتى وإن متنا ونحن نحاول .

نزلت الكلمات بردًا وسلامًا على قلبيهما، الأمر كله يكمن في الأمل .

***

الفصل الرابع

لم تنم سارة منذ يومين، تنهي عملها ثم تعود إلى حاسوبها باحثة عن أي حوادث غريبة تخص رجلًا بالأوصاف التي لمحتها بالصور.. لا نتائج، الأمر غريب بعض الشيء فمثل هذه الحوادث لا يمكنها الاختباء فما أن تشم الصحافة خبرًا حتى ينتشر كالنار في الهشيم .

استيقظت لتجد نفسها على كرسي المكتب، بدا وكأن النعاس غلبها بالأمس، حاولت استعادة اتزانها؛ تأملت الحاسوب المحمول وقد همت بتطبيقه لتلمح شيء ما .. عنوان لفيديو يروي حكاية صبي يتحدث عن نفس الرجل الذي تبحث عنه..

شاهدته ثم فتحت مدونتها مسجلة اسم الصبي *توماس جونسون*.. ارتفع صوت المنبه يشق الأسماع.. همست لنفسها *وقت المحاضرات، لا يمكنني النوم الآن *.

جذبت كتبها وخرجت من شقتها وانتظرت الحافلة بالشارع.. وصلت متأخرة إلى المحاضرة فاعتذرت من البروفيسور *والتر*.. أستاذ مادة الفيزياء لصفها الجامعي، بعض زملائها يتحدثون عن كونه مجنونًا فدائما تجد لحيته دون تهذيب وشعره أشعث.. يتحدث بهوس عن الفيزياء والنظريات كأنها واقع ملموس؛ مؤمن ببعضها رغم استحالتها..

سمح لها بالدخول ثم بدأ الحديث عن واحد من نظريات أينشتاين وعلاقتها بالسفر عبر الزمن.. استأذن أحد الطلبة في سؤال:

- هل هناك دلائل ملموسة على هذا الأمر؟ .

طلب السيد والتر منه الجلوس ثم استطرد قائلًا:

- أعلم أن الكثير منكم هنا غير مصدق لحدوث مثل هذه الأمور أو على الأقل في الوقت الحالي، لكن الحقيقة التي لا تعلمونها غير ذلك.. الأمر حدث لأشخاص عِدة على مر السنين.. حوادث كثيرة دونت عن أشخاص أتت من الماضي واختفت بظروف غامضة.

ارتفع همس الطلبة تنمرًا واعتراضًا، بدا وكأنه يعرف أحدًا ما مرّ بمثل هذه الأحداث ، طلب من الجميع التزام الصمت..

سارة تتابع الحديث، انتهت المحاضرة وقد عزمت على الانفراد بالبروفيسور.. أخلى الطلبة القاعة ولم يبقَ سواها معه، همَّ بالخروج فلحقت به تناديه:

- سيد والتر.. لحظة من فضلك.

توقف هنيهة ملتفتًا..

- أهناك شيء لم تفهميه؟ .

- ليس بالضبط .

مال برأسه متعجبًا، إن كانت واحدة من طلابه لا تحتاجه في شرح أمر دراسي فما الذي تريده منه..

- حسنًا ما الأمر؟ .

- أردت سؤالك عما تحدثت عنه اليوم بخصوص المرور عبر الزمن.. بدا وكأن لديك معلومات ما عن بعض الأشخاص .

صمت طويلًا.. طال صمته فأكملت:

- أريد سؤالك عن شخص ما يُدعى *توماس جونسون*.

ظهر عليه الاضطراب..

- من أين لكِ بهذا الاسم؟.

- أجريت بحثًا على الانترنت عنه فظهر لي .

- كيف؟ .. لا وجود لأي معلومات عن هذه الشخصية..

بدا على دراية جيدة بهذا الشخص، وإلا لم اضطرب؟ ..

- سيد والتر، أنا في حاجة إلى بعض المعلومات عن هذا الشخص .

- لا أعرفه، ولا أنصحك بالبحث ورائه .

تركها على عجل وقد ظهر عليه الغضب والقلق، خرجت من الجامعة متجهة إلى المطعم لتتناوب اليوم وردية مسائية تعويضًا عن الصباحية التي ضاعت بالجامعة..

ولجت من باب المطعم، بدلت ملابسها ثم بدأت بالعمل.. لمحها عبدالله المنهك مع الزبائن فابتسم لها، بادلته الابتسام ولكن بعينين جامدتين.. الأمر ملأ رأسها بالضجيج فما علاقة السيد والتر الأستاذ الجامعي بشخص كـ*توماس جونسون* اختفى منذ زمن طويل ولا أحد يعلم عنه أي شيء.

بينما تحضر كوبًا من العصير المثلج لواحدة من الزبائن انقلب على المنضدة دون قصد منها، صرخت الزبونة فيها..

- ما هذه الحماقة، ألا ترين ..

هرولت تمسح المنضدة معتذرة.. تابع عبدالله من بعيد ثم تدخل عندما وجد صراخ المرأة في ازدياد يتأمل سارة التي بدت وكأنها ليست هنا، طلب منها ترك ما بيدها ومتابعة الزبائن وهو سيتولى الأمر .

انتهى اليوم، قاما بإغلاق المطعم بعد تنظيفه..

- سارة..

- ماذا؟ .

- أهناك شيء تريدين الحديث عنه؟.

- نعم..

- حسنًا، ما الذي حدث؟ .

- أظنني وجدت خيطًا آخر عن الكتاب.. ولكني لا أستطيع فهمه .

اعتاد صدماتها تقبل حديثها وكأنه أمر اعتيادي ، استطرد قائلًا:

- أنا لم أعرف ما الخيط لأفهم ما الذي يجعلك تائهة هكذا بشأنه

استقلا الحافلة.. الوقت متأخر ولكن الأمر ضروري، عليهما أن يتحدثا ، وصلا إلى حيث شقته.. حاول فتح الباب ففتحت جارته عندما سمعت صوته .

لم يكن بينهما سابق معرفة.. شابة ثلاثينية يافعة ممشوقة القوام لها شعر فاحم وعينان سوداوان، نادته مشيرة إليه:

- يا سيد .

التفت متجهًا إليها، فوقفت سارة تتأملهما .

- مرحبًا أنا جارتك في الشقة المقابلة، هناك شخصان حاولا اقتحام شقتك.. لمحتهما وأنا أفتح الباب، ما أن رآني فرّا.. لم يكن هناك وقت لإبلاغ الشرطة..

شكرها ثم غادرها عائدًا إلى سارة التي كاد الدخان يصعد من رأسها، فتح الباب شاردًا.. جلست على أريكة الصالة وقد تغير لون وجهها.. جلس إلى جوارها منتظرًا أن تخبره ما عندها فلم تتفوه بكلمة..

- حسنًا أخبريني، ما الذي كنت تتحدثين عنه ونحن أمام المطعم؟.

- أريد المغادرة .

- ماذا هناك؟.

همت بحمل حقيبتها وكتبها فأمسك حقيبتها يجذبها منها..

- أنت مجنونة؟ ، ما الذي حدث؟ ..

- اسأل نفسك؟.

جذبها بقوة، أجلسها إلى جواره صارخًا فيها:

- اجلسي هنا، ما الذي حدث وجعلك تغضبين بهذا الشكل؟ .

- لا شيء .

- يا الله ، ماذا هناك يا سارة؟.. يقولون عن نساء مصر نكد، لا أبدًا فالنساء كلهن طبع واحد .

- أترى ذلك؟ .

- نعم هذا ما أراه، ما الذي فعلته أنا؟ .. أنتِ كبحر هاج دون تدخل من الطقس .

- حسنًا سأغادر.. واجلس أنت مع جارتك تحل لك أمر الكتاب..

انفجر ضاحكًا، فَهِم الذي أفقدها أعصابها..

- أحقًّا ..

تأملته بغضب فأكمل محاولًا استيعاب الموقف:

- بالنسبة لأمر السيدة التي أغضبتك..

لم يكمل حديثه حتى صاحت فيه:

- مَن هذه التي تغضبني، أنت مجنون؟ .

- لا أقصد هذا أنا فعلًا مجنون، أقصد يعني.. السيدة التي وقفت معها هذه التي نادتني، أخبرتني أن هناك شخصين حاولا اقتحام الشقة.. سارقان، تنبهني ليس إلا، أنا حتى لا أعرف اسمها ولا أعتقد أنها تعرف اسمي .

بدا وكأن قلبها هدأ في صدرها، أكمل:

- أما بالنسبة لكونك تريدين مني أن أذهب لحل الكتاب معها، فصدقًا لا أحد هنا يستطيع فعل ما تفعلين أنت الآن ..

شعرت بارتياح ما يتخللها، أكمل حينها:

- نهدأ الآن ، نعود كما كنا؟ .

ابتسمت.. ثم عادت للحديث عن أمر السارقين،- إن أردت أن تنال اهتمام امرأة فلا تشعل غيرتها.. ستترك السكين في صدرك حتى تنتزع منك ما يهدئ ثورتها بعدها ستفكر في تضميدك - .

- سارة .. دعك من أمر السارقين فأمرهم قد انتهى، أخبريني فيما كنت شاردة اليوم؟.

- بروفيسور والتر.

- مَن؟ .

- هذا أستاذ مادة الفيزياء بالجامعة .

بدت على وجهه علامات البلاهة، وكأنه يستصعب عليه ربط ما تقوله بأي شيء قريب.. أكملت حينها:

- كنت أبحث عَبر الانترنت عن رجل له مواصفات الرجل الذي رأيناه بالصور إن كان مَرّ أحدهم بأحداث مشابهة أو قابل رجلٌ يشبهه، صادفت فيديو يروي قصة طفل ابتلعته دوامة وكأنها بوابة ما.. عاد منها بعد ستين عامًا وقد زاد من العمر خمسة أعوام فقط.. كان يهذي بالرجل الذي نبحث عنه.. ظنوه محتالًا أو مدعٍ، فقد بلغ أبواه من الكبر عتيًّا، بعد مهلة من الزمن اختفت الأسرة كلها ولا أحد يعرف عنها أي شيء .

- وما علاقة والتر بالأمر؟ .

- فتح شيئًا مشابهًا بالمحاضرة.. سألته عن شخص *توماس جونسون* امتقع لون وجهه.. بدا أنه على معرفة جيدة به رغم أنه أنكر بمجرد سؤاله..

- إن كان ينكر يا سارة، فكيف لنا أن نعرف علاقته به .

أجابت بثقة:

- سنعرف .

***

لم تفهم السيدة *آليس* ما الذي يجعل رجلًا قاس القلب كـ*بيوس* لا يطلب تناول الطعام إلا وعلى مائدته *سيرين*؟.. فما أن استعادت جزءً من عافيتها يجعلها تستطيع الوقوف على قدميها حتى بات لا يأكل إلا وهي مجبورة على الجلوس مقابل له وإن لم تأكل .

لعل السيدة آليس قادرة على استيعاب ما يدور بصدره، لكن الأمر عجيب.. فكيف لرجل في قلب بيوس أن يحب امرأة إلى هذه الدرجة؟، وسيرين لا تقوى حتى على تأمل وجهه تكرهه حد الموت .

منذ أن حدث جهاد أمه عن ضرورة البقاء إلى جوار سيرين وهي تحاول كسب ثقتها بشتى الطرق، تعلم أن الأمر صعب عليها فما رأته المسكينة يشيب له الولدان.

باتت سيرين تشعر ببعض الأمان بوجود السيدة آليس، خاصة وأنها لم تش بأكثر من موقف وحديث لبيوس .. وكأنها تحاول الاعتذار لها إن كانت جزءً من أجزاء كثيرة ساعدت على فقدها والاس والوصول لما هي عليه..

- سيدة سيرين.. عليك تناول الطعام.

ما أن تفوهت بهذه العبارة حتى تحولت نظرتها العادية إلى أخرى حانقة، حاولت الأخيرة

تدارك الأمر..

- أنا أحبك، لا أريد أن تصابي بمكروه، أعلم مصابك ولكن امتناعك عن الطعام ليس بحل .

أجابتها بانفعال:

- إذن أخبريني؛ امرأة بمكاني كيف لها أن تحمي نفسها وتثأر لما هي فيه، هذا كل ما أستطيع فعله..

نكست رأسها باستسلام لا تعرف ما الذي عليها قوله، حينها أكملت سيرين:

- فلا تطلبي مني تناول الطعام، سيدخل إلى أحشائي يكويها .

- سيدتي لا تقولي ذلك، أعلم الذي تشعرين به.. أنا أحاول التفكير معك .

انكسرت نظرتها، أجابتها بصوت شجِن:

- أعلم آليس .

- سترسم لنا الأقدار طريقًا، أنا على ثقة بذلك .

ارتفع صوت إشارة ما بالغرفة ففرقعت السيدة آليس بإصبعها، بدت شاشة أثيرية ظهر على وجهها أحد الآليين المحاكين للبشر..

- يريد السيد بيوس السيدة سيرين على مائدته في خلال خمس عشرة دقيقة .

أومأت برأسها أن *حسنًا، ستكون هناك في الحال*.. وكأن حزن العالم جثم على صدرها، لا تريد حتى النظر إلى وجهه ولكن ما العمل؟ .

ربتت آليس على كفها في ابتسام تهون عليها:

- بالتأكيد هناك مخرج، اصبري ستجري الأمور كما تريدين .

خرجت من غرفتها متجهة حيث غرفة الطعام، اعتادت أن تتحرك ومعها جنوده، مظهر ليس بجديد.. كل ما تريده أن تنتهي من هذا الأمر.

جلست على الكرسي المقابل له، بدأ بتناول الطعام وهي جامدة لا تتحرك..

- ألن تأكلي؟ .

غارقة في الصمت، تتأمله ولا تجيب..

- تريدين الموت أليس كذلك؟..

ابتسم ساخرًا.. أردف:

- لن أسمح بذلك .

تناول كأس النبيذ إلى جواره ثم أعاده إلى المنضدة في خفة، يقطع قطعة اللحم بسكين الطعام.. بعد صمت ليس بطويل.. حدثها:

- ما رأيك بصفقة ما سنجريها سويًّا الآن، وليس عليك أن تتسرعي بالإجابة .

وكأنها تترقب عرضه ..

- سأطلق سراح والاس وأمِّنْه في نفسه فقط إن تزوجتيني .. ما رأيك .

اشتعل قلبها في صدرها واحمرت عيناها تقاوم الدموع.. تخشى انفلات الأمر، قتل خطيبها والآن يساومها على قلبها.. تشعر منه بالاشمئزاز فيزداد حنقها.. داخلها غضب كفيل بقتله الآن .

- سأدعك تعودين لغرفتك.. فكري .

عادت لا تقوى قدماها على حملها، بداخلها الكثير من البكاء، وما أن دخلت من باب غرفتها حتى التقت عيناها بعيني آليس تحكي شيئًا ما لا تفهمه، همست إليها في ذعر:

- عزيزتي السيدة سيرين أحدث شيء؟ .

وكأنها تنتظر السؤال، كسحاب مُثقَّل أمطرت الكثير من الدموع فالأمر جَلل .. دفع مظهرها آليس لمحاولة تهدئتها ، تريد أن تفهم .

- اهدئي وأخبريني ما الذي دهاك؟ .

بصوت متهدج من البكاء يصعب فهمه أجابتها:

- الحقير يطلب مني الزواج، يساومني على إطلاق سراح والاس مقابل موافقتي .

والاس؟ .. والاس الذي قتله بدم بارد وأوهمني كل هذه الفترة كونه مازال هنا، أين هو والاس؟ .. ليته هنا، أنا دونه الآن ينهشني كلب كبيوس.

وضعت آليس يدها على فم سيرين مهرولة، بدأ صوتها في الارتفاع..

- سيدتي اهدأي، سيسمعون بالخارج..

- فليسمع.. ليقتلني ويريحني من كل هذا الألم..

صرخت بها وازداد بكاؤها.. أي شعور داخل صدرها الآن ..

- أريد منك أن تهدئي، اسمعيني.. وافقي .

- ماذا تقولين.. ماذا تقوليين؟ .

- اخفضي صوتك سيدتي سيسمعوننا .

جذبتها إلى ذراعيها، ضمتها مقتربة من أذنها.. همست إليها:

- تزوجيه وانتزعي حقك من بين عينيه..

هدأت سيرين لتفهم.. صمتت عن البكاء وبعد وهلة استيعاب سألتها:

- كيف ذلك؟.

ابعدتها آليس عن ذراعيها عندما تأكدت من سكونها، أكملت:

- اجعليه يثق بك إلى أن تعرفي عنه كل شيء، هذا سلاح .. فكري فيما أقوله يا ابنتي، الذكاء أفضل ما قد تستغليه في حربك الباردة هذه.

***

الانتظار أسوأ الخيارات وآخرها قبل فقد الأمل ، الانتظار لمجرد الانتظار فلا سبيل آخر.. ولا نهاية للطريق ، تنتظر شيئًا ما وداخلك صراع قاتل.. أتفقد الأمل وتموت أم تنتظر؟ وذلك موت أيضًا .

أيام تمر بلا جديد تحمله، فلا عاد نضال إلى وطنه.. ولا حلّ معضلة شعب يأكل عقله الجهل وأمعاءه الجوع.. ولا علامة واحدة على اقتراب أي النهايتين ؛ إلى متى؟ .

لم يخرج نضال من غرفته الصغيرة اليوم الأمر الذي لفت انتباه سبستيان.. طرق الباب فخرج صوت يحدّث نضال: *السيد سبستيان في الخارج*..

فُتح الباب تلقائيًا ثُم أغلق نفسه من جديد.. سحب العجوز كرسيًّا ثم حدّث نضال:

- ما الأمر أيها الشاب تختبئ منا اليوم .

ابتسم حينها مجيبًا بالصمت، ابتسامته ليست طبيعية تُخفي غَليان ما.. استأنف سبستيان:

- اشتقت لزوجتك؟.

تنهد نضال.. وكأن الأخير مَسّ مكان الجُرح تمامًا..

- وعدتُك بالعودة لكني لم أصل حتى الآن لما يؤهلني لنقلك، لكن لديّ خبرٌ جيد..

انتبه له..

- ماذا؟ .

- يُمكنني أن أجعلك تراها ، توصلت لما يجعلني أمكنك من ذلك.. ستمر إلى هناك، ستراها ولكنها لن تستطيع رؤيتك، نحن بالبعد السادس هي بالثالث ، لن تستطيع لمسها لن تسمعك.. لكنك ستراها وتسمعها..

الأمر مؤلم.. كيف له بعد كل هذا ألا يلمسها، يتمنى لو عانقها عناقًا طويلًا يُشبع كل هذا

الفقد لكن بعض البلاء خير مِن كُلِه.. أومأ برأسه .

صحبه سبستيان حيث مختبره، بدأ بضرب لوحة أثيرية، حدد التاريخ والوقت والمكان بما أخبره به نضال.. خرجت قوة كهرومغناطيسية ما شكلت بوابة.. ثم أشار إليه بالدخول ..

- كن حذرًا، لديك خمس عشرة دقيقة ثم ستختفي البوابة.

ولج إليها، همس إلى نفسه:

- منزلي ..

يتجول، سمع صوت زوجته يخرج من غرفة النوم.. عدا إلى الداخل ، تحمل طفلًا ما يشبهه كثيرًا.. تأمل الصور على المدفأة بالغرفة، صورته وصورة زوجته وصورة...

- إنه طفلي.. طفلي؟ .

صاح بها، عدا إليه يحاول لمسه ولا يستطيع، يصرخ حتى يسمعانه ولا صوت يصل، مدّ أنامله الأثيرية إلى زوجته الجالسة على السرير.. تأملت حولها وكأنها تشعر به، ضمت صغيرها تعتصره تبحث فيه عن أبيه ، و.... صوت رقمي قطع المشهد..

انتهى الوقت.. عُطل بنظام التشغيل، انتهى الوقت.. عُطل بنظام التشغيل..

صرخ نضال:

- لحظة انتظر، رأيت ابني.. لي ابن .

- اهدأ ..

همس بها سبستيان في محاولة لتهدئته، حدثه:

- من الصعب معاودة المحاولة الأمر في طور التجربة.. التحميل زائد وقد تعطل نظام التشغيل..

- لكن.. لكني ....

تنهد العجوز مشفقًا:

- أعلم ما تشعر به ولكن ما باليد حيلة ..

انكسرت نظرته فلا يملك سوى الصبر.. ولكن هناك بصيص أمل فقد استطاع رؤية زوجته وعلم أن لديه طفلًا .

أنت وأحلامك بطريقين متوازيين، تراها ولا تستطيع لمسها ومن المستحيل أن تلتقيا.. هذا ما شعر به نضال.. تعطش ولم يرتوِ رغم أن الماء أمام عينيه .

عادا حيث تيا، ضربته في كتفه فرفع وجهه الحزين إليها بلا مبالاة ثم أشاح عنها مكملًا

طريقه إلى غرفته.. نظرت إلى سبستيان في حيرة.

- اتركيه تيا، يحتاج للبقاء مفرده.

تبعته بعينيها إلى أن أغلق الباب خلفه، تأملته تسأل نفسها *ماذا دهاه؟*..

***

خَرج جهاد حاملًا حقيبة ظهر ملأها ببعض القواطع الحادة التي يمكن له استخدامها داخل المخزن، شق شوارع متفرعة جانبية يقل المارين منها.. قطع اتزانه خيال مَرّ من أمامه، أحدهم يعدو عدوًا.. التفت إليه ليتعثر على بُعد أقدام واقعًا على الأرض فسقط غطاء الرأس.. همس جهاد إلى نفسه *إنها فتاة ، من ماذا تهرب يا ترى *.

وقفت من وقعتها مكملة الطريق، ما لبثت أن تختفي حتى ظهر أمامه آليين وقد بدا وكأنهما يطاردانها..

مَدّ أحدى قدميه فتعثر واحد على الأرض؛ استدار الآخر إليه ناسيًا أمر الفتاة وبصوت رقمي صرخ فيه:

- ارفع يدك، لا تتحرك..

رفع يديه ببساطة، فأكمل الآلي موجهًا فوهة سلاحه:

- أنت تعرفها؟ ..

أجاب بلا مبالاة:

- على رِسلك أيها الآلي، أنا لا أعرفها.. ما حدث محض خطأ غير مقصود.

بدأ بتفتيش حقيبته حتى توصل إلى بطاقة تعريف هويته.. وما أن تأملها حتى تَركه سريعًا وانصرف..

الفتاة من بعيد ترى ما حدث، لو أن أحدهم مكانه لكان مقتولًا الآن.. همست لنفسها *جنود بيوس لا يسامحون، ما الذي رآه الآلي بالبطاقة؟ أهذا أحد رجال بيوس؟ .. إن كان فلم ساعدني؟ *..

- أنا أعرف أنكِ هنا، يمكنكِ الظهور الآن لقد رحلوا ولن يعودوا .

عادت تهمس لنفسها *يا إلهي، كيف علم بذلك؟ *.

- هاه، تظهرين أم أنادي عليهما من جديد .

أظهرت نفسها في ذعر فابتسم جهاد، صغيرة لم تتخطَّ حاجز السابعة عشر من العمر، تمتلك شعرًا أحمر ويملأ النمش وجنتيها، نظرت إليه بعينيها البنيتين في ريب فاتسعت ابتسامته أكثر.

- لماذا يطاردونكِ؟.

- ولماذا تركوك؟ .

- لا يجب أن تردي السؤال بسؤال .

- ولا يجب أن أثق بغريب التقيته منذ لحظات أمره مريب إلى حد قد يجعلني لا أثق به .

تبدلت ملامحه إلى الاستياء، همس إلى نفسه..

* يا لوقاحتها *

ثم حدثها بعتاب ..

- لقد أنقذتك للتو .

- لم أطلب منك ذلك ، ولم تجب لماذا تركوك؟ .

- ولماذا عليّ أن أجيب مغرورة مثلك؟ .

- حتى أستطيع إجابتك..

- حسنًا...

يفكر في الذي عليه قوله..

- أمي إحدى الخادمات اللائي يعملن بمحيط بيوس.

ابتسمت.. ملأت فمها بالبصاق ثم أطلقته حيث مكانه.. تحولت نظرتها إليه إلى الاشمئزاز.. تأملها مندهشًا صامتًا فلا يعرف كيف يجيب ولا لم فعلت ذلك؟ ..

أردفت:

- ترى بصاقي وقاحة أليس كذلك؟ ..

بيوس قتل أخي..

علمت لم كان رجاله يطاردوني يا بن الخادمة؟ .

كلماتها كالصاعقة تحرق آذانه.. أعطته ظهرها وقد همت بالمغادرة فأوقفها متحدثًا:

- أعلم الذي تشعرين به، وأقدر ما أنتِ عليه الآن..

إن أردتِ حق أخيكِ فلا تتهوري وتقتلي نفسكِ دون فائدة واحدة..

إن رأيتكِ المرة القادمة سأنقذكِ كما فعلت الآن..

- أشرف لي أن أموت على أن ينقذني من يضع يده في يد هذا الكلب .

هرعت تحمل دموعها داخل مقلتيها تاركة إياه غارقًا في بحر دهشته.. لا يعلم أيتألم لظلمها أم يغضب لتجنيها عليه، الأمر يبدو للغريب كما فهمته هي .

تمني حينها جهاد لو يستطيع عمل شيء واحد يرفع عنه تهمتها هذه، وكأنه صدقها على نفسه.. وكأنه سقط في عينه بعد أن سمع كلماتها .

كل هذا الغضب داخلها.. كل هذا الغضب .

***

وقف يُليان أمام باب إدوارد حائرًا فأخته الصغرى ليست بالداخل.. اعتاد زيارتها من حين لآخر، لمح ذات الشعر الأحمر من بعيد منكسة الرأس تقترب من منزلها الرث بأقدام متثاقلة.. هرول إليها.

- ماذا هُناك؟ .

ما أن سمعت صوته حتى رفعت رأسها إليه.. انهارت على أعتابه، تبكي وكأن البكاء سينتهي من الدنيا فتريد الاكتفاء منه، وقف أمامها حائرًا لا يعرف كيف عليه تهدئتها؟. ويريد فهم ما يجري.. جذبها من كفها كطفلته، دخل إلى منزلها وهي من خلفه أجلسها مستفسرًا:

- أخبريني الذي حدث.

صمتت تمسح دموعها ثم روت على مسامعه ما دار.. ناداها بصوت يحمل العتاب:

- هَيَا .. ما الذي كنت تفكرين به؟، حاولتِ إيذاء الآليين ظنًّا أنك بهذا تستردين حق إدوارد؟ ، وإن متِ الآن؟.. تظنينه سيكون سعيدًا بموتك دون داع ، الغريب محق .

عادت للبكاء تحدثه:

- أمه خادمة لبيوس .

- إن كان سيئًا لَقَدَّمكِ لهم بدلًا من إنقاذكِ .

- حاولت استرداد حق أخي..

- عماكِ الانتقام، هناك فرق.

ضرب بين عينيها ضربة خفيفة بسبابته يعاتبها بلطف.. يغلي قلبه أكثر منها ولكن عقله عليه أن يسود الموقف، هي فتاة في النهاية لن تستطيع التحكم مثله .

- كفي عن البكاء وعديني الآن .

- بماذا؟ .

- لا شيء ستقدمين عليه دون أخذ رأيي .

تمهلت في الإجابة، ثم أومأت برأسها..

- أنتِ أمانتي *هيا*، علي الحفاظ على سلامتك حتى اللحاق بأخيكِ .

صرخت فيه:

- لا تقول مثل هذا الكلام، أنا لم أشف من جُرح أخي .

ابتسم يحدثها:

- أنا آسف .

يعلم أن النهاية ستكون هكذا ولكنه أخطأ في قول مثل هذا أمامها.. *هَيَا* تعلقت به يشعر بذلك ولكنه ودائمًا لا يجب أن يُشعرها بكونها أكثر من أخت صغرى، يُمهد لها مثل هذا إن حدث يومًا .. نُخلق لأسباب ونموت فور تحققها، صغيرة على استيعاب مثل هذا الأمر.. في الحقيقة لا فتاة تكبر في مثل هذه الأمور ..

***

ما أن انتهت سارة من محاضرة السيد *والتر* حتى انتظرت في الجامعة إلى نهاية دوامه، تبعته حتى وصل إلى منزله في واحد من أحياء العاصمة، بدا وكأنه يعيش بمفرده.. اتصلت بعبدالله وقد أملت عليه العنوان فلحق بها..

وقفا كلاهما أمام باب منزله، ضربت سارة الجرس ليخرج صوت السيد *والتر* من جهاز معلق على الباب مستفسرًا..

- مَن بالخارج؟ .

- أنا سارة سيدي .

فتح الكاميرا المعلقة أمام الباب وتأمل الشاشة الصغيرة بالداخل.. حدثها بصوت غاضب ما أن لمحها..

- اذهبي من هنا .

أغلق الهاتف فأعادت ضرب الجرس، سئم إلحاحها ففتح الباب المربوط بسلسلة تحجب فتحه على آخره..

- كفي عن إزعاجي وإلا سأطلب الشرطة .

- سيد والتر أريد الحديث معك، لن أطيل عليك صدقني .

أغلق الباب بوجهيهما.. حدّثها حينها عبدالله:

- ما العمل الآن في أستاذك هذا؟ .. لقد تركنا ودخل .

- لن نرحل من هنا حتى يفتح لنا الباب .

- أنت مجنونة ..

استسلم لما قالته، انطوى النهار وحلّ الليل.. اشتعلت مصابيح المنزل والمنازل المجاورة بينما مرّ والتر من أمام النافذة الزجاجية المواجهة للحديقة حتى لمحهما، همس إلى نفسه *لم هما مُصِرّين هكذا؟ *، اتجه ناحية الباب ووقف شاردًا خلفه لدقائق.. فتحه ثم أشار لهما بالدخول .

ابتسمت سارة وأشارت إلى عبدالله *أرأيت، أخيرًا * فأمسك حينها جنبه من كثرة الإرهاق.. دخلا بخطوات ثقيلة يسيران في المنزل بحذر متأملان ما حولهما.. منزل تقليدي بسيط، وصلا إلى باب غرفة فطلب منهما دخولها.. بها مكتب قديم، التقطت سارة صورة لصبي صغير على المكتب فاتسعت عيناها دهشة، التفتت إلى السيد والتر تسأله:

- مَن هذا؟ .. أهذا أنت؟

ثم صاحت فيه:

- أنت توماس جونسون؟ .

ابتلع ريقه.. صمت قليلًا وقد بدى عليه الاضطراب..

- أعلم أنه أنت .

تنهد متوترًا لا يعرف كيف عليه أن يهرب، استأنفت:

- كنت تهرب مني لذلك .

تحدث بغضب:

- ماذا تريدان .

شعر عبدالله بتوتره فأراد طمأنته..

- أعلم أن الأمر حساس بالنسبة لك سيدي، أعدك لن يخرج عن ثلاثتنا ولكني حقًّا أحتاج إلى معلومات عن الرجل الذي التقيته .

- كيف عرفت بأمره؟ .

- أنا أيضًا التقيته، أريد أن أفهم بعض الأشياء.. لن أستطيع التوضيح ولكني حقًّا أريد معرفة ما دار بينكما .

ابتسم *والتر*.. تبدل توتره بهدوء فحدثه:

- أنا أفهم الآن .

- تفهم ماذا؟ .

- تريدان معرفة الحقيقة؟..

نعم.. أنا الصبي *توماس جونسون* الذي اختفى هو أسرته بالسبعينات وكان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا فقط.

بأوائل القرن الماضي كنت طفلًا لأسرة ثرية.. أبي كان يملك منزلًا فخمًا له بحيرة صناعية، انتقلنا له منذ فترة ليست بالبعيدة، البحيرة تحيطها واحدة من الغابات.. من فترة لأخرى كان يحدث بعض الأشياء الغريبة كظهور دوامات في البحيرة واختفاء بعض الحيوانات التي تقف على حافتها بشكل غامض..

سمعنا الكثير والكثير من القصص، مرة مسحورة.. وأخرى ملعونة، وبعض الأحيان أن الشيطان يسكنها.. لم نصدق أيًّا من هذه الأشياء فأبي كان من القلة المنطقية التي تندر في هذه الفترة.. فطالما نصلي للرب لا ضرر ولن يقربنا الشيطان .

حتى صباح أحد أيام يونيو لعام 1912 تغير كل شيء.

استوقفه حينها عبدالله:

- لحظة، لحظة .. هناك شيء لا أفهمه، كيف لك في السبعينات أن تبلغ من العمر خمسة عشرة عامًا فقط.. وتروي لي قصة كنت فيها بالعام 1912؟.. هذا ليس منطقيًّا ، روت لي سارة شيئًا عن هذا ولكني إلى الآن لا أفهم .

- ستعرف إن صبرت .

عاتبته حينها سارة وكأنها تخشى أن يتردد في إكمال ما حدث:

- عبدالله.. دعه يكمل .

أرجع والتر ظهره مستعيدًا خيط الحديث الذي انفلت من يده.. ثم استطرد:

- الرابط بين السبعينات والعام 1912 هي الدوامات التي تظهر في البحيرة..

كانت ذكرى ميلادي فقد بلغت من العمر عشرة أعوام، ذهبت للعب بالقرب من البحيرة وحولي أصدقائي.. ظهرت دوامة فضولي دفعني للاقتراب منها فاقتربت مني وكأنها تراني ولم أعِ بنفسي إلا وأنا داخلها .. شعيرات كهرومغناطيسية تشبه أهداب الرحم تدفعني للداخل إلى أن وجدت نفسي بأرض غير الأرض فارغة مظلمة لا أحد بها .. وقفت أبكي وأصرخ من الخوف.. ظهر رجل مرتديًا بذلة كلاسيكية نادى اسمي واقترب، أعطاني شيئًا ما وهمس بكلمات لم أفهم مغزاها .

عاد والتر للصمت وكأن الحادث لازال يؤثر به حتى الآن.. سألته حينها سارة:

- ماذا قال؟ .

- سيأتي إليك ، هكذا قال .

لفظتني الدوامة في يوليو 1970 اتأمل حولي في صدمة، ألاطم الماء وأنادي أبي.. صوتي بات مائلًا للخشونة لم يكن صوت طفل بالعاشرة..

لمحت من بعيد رجلًا عجوزًا جالسًا على حافة البحيرة والمكان ليس المكان، نادى رجلين من الأمن أخرجاني.. اقترب مني يتأملني فتغيرت قسمات وجهه .

صاح مندهشًا *توماس *

من بين بكائي حدثته *أتعرفني؟ .. تعرف أبي؟ ، هل يمكنك أن تأخذني إليه؟*

ضمني إليه باكيًا غير مصدق أو مستوعب لما يجري وأنا الآخر لا أفهم أي شيء، عرضني على بعض الأطباء والخبراء.. استوعبت أنا ما حدث ولكن لا أحد استوعبه، فبعد اختفائي لم يكف أبواي عن البحث عني حتى بعدما بلغا من الكبر عتيًّا فقد تخطا حاجز العقد الثامن، ادعى الكثيرون أنهم أنا لغنى أبي الفاحش وليس منطقيًّا أن أختفي بعام 1912 وأظهر بعدها بستين سنة ولم أكبر سوى خمس سنوات فقط.

أيقن أبي أن الأمر لن ينتهي إلا باختفائنا حيث أن الصحافة والحكومة لن تتركنا.. واستطاع إخفاء هويتنا وتغيير أسمائنا وسافرنا بعيدًا..

استطرد عبدالله:

- ما الشيء الذي أعطاك إياه؟ .

- أنت من حدثني عنه إذن .

- حدثك عني؟ .

- نعم.. أخبرني أن شابًّا ما سيأتي ذات يوم للسؤال عن الشيء وأنا من يومها أنتظرك ، ابقيا هنا للحظات.

تركهما ثم عاد حاملًا صندوقًا صغيرًا تأملاه بترقب شديد، فتحه أمامهما ثم وضعه مقابلًا لعبدالله.. التقطه بأنامله بحرص؛ علقت سارة:

- وكأنه جزء من غلاف الكتاب ..

كشف عبدالله عن حقيبته وأخرجه منها أمام *والتر* الذي بدا عليه الدهشة مما يحدث أمامه، فتش فيه عن مكان ينقصه هذه القطعة حتى وجده بالقرب من أحد الأقفال.. اقترب بها منه فلقمها دون تدخل منه وكأن الكتاب ينتظر قدومها ، تحرك المفتاح بالمنتصف ناحية الرمز الثاني الذي يشبه حرف M بالإنجليزية فانفتح القفل الثاني.. تهللت سارة:

- لم يبق سوى قفل واحد .

أومأ عبدالله برأسه في جدية، سأله والتر:

- مَن تكون؟ .. وما هذا الكتاب أمامك وما علاقة هذا الرجل بك؟.

- أنا مثلك سيد والتر أحاول البحث عن الرابط بيني وبين الرجل وبين الكتاب وحيرتي تزداد.. نُريد مساعدتك، الذي جعلك تحمل مثل هذا الشيء كل هذه السنوات دون أن تضيعه يجعلك تحمل سرنا هذا؛ كشفت أمامك أمر الكتاب لأني أثق بك .

عاد والتر للصمت يفكر طويلًا في الأمر، حدثه:

- سأساعدكما .

خَرجا من منزله وفي طريق العودة لم ينطق عبدالله بكلمة، تعلم سارة كونه لا يحب أن تقترب من كفه رغم رغبتها الدائمة في التقاطها؛ تحترم حدوده.. جذبته من كُم قميصه تستجلب انتباهه، انتبه فابتسمت:

- ماذا هناك؟ .

تنهد..

- لا أعرف يا سارة، أشعر بالقلق..

- من ماذا؟ .

- ينتابني إحساس أننا مقدمون على أمر خطر، لم أكن هكذا ولكني لست مطمئنًّا .

- لا تقلق.. سأكون معك حتى النهاية.

- وما ذنبك بكل هذا .

- ذنبي أني أريد أن أبقى معك حتى النهاية .

تبعتها بضحكة تشبه ضحكات الأطفال فرفع وجهه إليها، ضحكت عيناه.. ذهب التوتر بعيدًا عندما أخبرته بذلك.. فالطريق الموحش يكون أقل خوفًا عِندما ينقسم على اثنين .

***

الفصل الخامس

ظهرت الشاشات الأثيرية تعلن عن نفسها من كل صوب وحدب بأنحاء الكوكب كما بدت أخرى بالمدينة الخفية، وقف الجميع منتبهين فلم تظهر هذه مرة إلا للإعلان عن شيء يصب في مصلحة شعب أندروميدا كما تقول الحكومة .

إنه ذاك المقنّع من جديد .. تحدث نصًا:

شعب أندروميدا الحبيب، كنا معًا دائمًا في الأوقات العصيبة.. نساند بعضنا البعض ونقاوم كل دخيل لا يريد مصلحة كوكبنا.. نحبكم ولا نريد إلا حبكم وتعزيزكم، كما جئنا إليكم بأخبار لا تسر أتينا اليوم لنخبركم بحدث سعيد، إنها خطبة سيد الكوكب *بيوس* للسيدة *سيرين*.. نتمنى مباركتكم لأن ذلك سيسر السيد ..

وفي نهاية البث ظهر مقطع صغير ترقص فيه سيرين بين ذراعي بيوس وكأنها تهيم به .. ثم انقطع البث وتلاشى العامة مكملين كأن شيئًا لم يكن .

مباركة ماذا والجميع غارق ، يعيش بيوس وكأن لا أحدًا سواه.. لا يشعر بما يحدث للناس من صنيعة يده .

تبدلت ملامح سبستيان فانتبه نضال..

- ماذا هناك سيدي .

أسدل جفنيه بدا أن ألمًا ما ضرب جدران روحه، تمتم *حتى أنتِ سيرين * وتنهد وكأن جبلًا جثم على صدره.. أجاب بصوت مهزوز:

- سيرين خطيبة والاس، لم يخبر أحدًا سواي قبل اختفائه.. كان يخشى لو انتشر الخبر أن يصيبها مكروه، أخفاها بيوس كما أخفاه.. لا أحد يعرف إن كان المسكين في عِداد الموتي أم لازال حيًّا، إن كان حَيّ فقلبه الآن أصبح ميّتًا .

لم أكن أتوقع يومًا أن يحدث مثل هذا وكأنه كابوس.. كابوس انقلب فيه كل شيء رأسًا على عقب.. كل ما لم يكن في الحسبان يحدث، كُل المستبعد أقرب ما يكون .

صمت نضال قليلًا يفكر بكلماته..

- ربما أجبرت .

- وهل المجبر يبتسم إن جُبر؟ .. لا أظن .

- تيا تعلم بأمرها؟ .

- لا.. ولا تُعلق بهذا الأمر أمامها، لا أريد أن يعلم أحد.

***

- هو الآن طليق .

قالها بيوس لسيرين فابتسمت..

- أعلم أنه الآن طليق يا بيوس .

- بالتأكيد لن يريد النظر في وجهك أو حتى سماع اسمك.. يعلم الآن أنك لي .

انكسرت عيناها، أومأت برأسها فأكمل:

- أظن كل ما طلبتيه قد تحقق، أريد الزواج منك في أقرب وقت .

- لا..

انتبه لرفضها فاستأنفت:

- لن يحدث قبل أن أثق بك..

- مُسْتَبَّعَدٌ سيرين .

انطلقت ضحكة ساخرة من بين شدقيها:

- استطعت أن تظفر بكوكب كامل ولا تثق بكونك تستطيع أن تظفر بقلبي؟ .

قابل ضحكاتها بابتسام:

- أنت محقَّة..

- إذن فافعل لأفعل.

أعيدني لغرفتي من فضلك..

أوشك أن يبعث بإشارة لرجلين من رجاله فاستوقفته:

- بداية خاطئة، كيف لي أن أثق بك وأنت لا تثق بي؟.. دعني أوضح لك عدة أمور:

أولًا بعد إعلانك عن ارتباطنا لا أحد سيثق بي من هؤلاء الذين كنت معهم، جميعهم يكرهونك كما تعلم فلا مجال للهرب..

وثانيهما من هنا قد يساعدني على الهرب؟ .. جميعهم رجالك المخلصين أو الخائفين يا سيد بيوس .

أما ثالثًا لم يعد هناك ما يمكنني الهرب لأجله، عليّ أن أحبك فلا ملاذ آخر لي .

الأمر منطقيًّا إلى حد كبير، أرسل إشارة إلى آليس لتأتي لاصطحابها إلى غرفتها.. وما أن عادت حتى ارتمت بين ذراعيها باكية..

- لا أستطيع التحمل، أكره أن أراه أكره سماع صوته.. حقًّا لا أستطيع.

مسحت آليس على شعرها في محاولة لتهدئتها..

- أعلم

سنجد حلًا لكل هذا.. أنا هنا معك سيدة سيرين طوع أمرك.. سأفعل ما تريدين .

هدأت.. تركت ذراعيها ثم نظرت إليها طويلًا.. فكرة ما ضربت رأسها، استطردت والكلمات تنساب على لسانها:

- أريد أن أبعث برسالة للسيد سبستيان.

***

بلغ الأمر من الظلم ذروته، لم يعد هناك سبيل واحد يستطيع أحدهم أن يسلكه، كاد البعض أن يكفر بالنهايات السعيدة التي تحدث عنها الأسلاف في الروايات والقصص.. سنوات عجاف لا تنتهي وبيوس لا يمل.. يحكم قبضته ولا إفلات.

لم تذهب عن عيني سبستيان نظرة الانكسار منذ أن علم بخبر سيرين.. تتأمله تيا ولا تحاول إقحام نفسها فلو أراد إخبارها لأخبرها .

لم تخلو الجلسة من يُليان ويوجين ونضال الذي ظلّ صامتًا يتابع .. بادر يُليان بالحديث:

- سيد سبستيان أدرك أننا نقف أمام جِدار يأبى أن يتحطم.. لا نرى ما ينتظرنا خلفه ولا نعلم سبيلًا لهدمه..

انتبه إليه وكأن الكلمات أصابت صميمه فأكمل يوجين:

- نحن معك للنهاية فالحياة لا تسير على هذا المحمل.. سيدق بابنا سبيل لنستمر، الظلام والنور صراعهما باقٍ دائمًا أبدًا، ليس من المنطقيّ أن نظل هكذا إلى أن نموت .

ما أن انتهى من قول عبارته حتى قطع الجلسة إعلان من الجهاز بأن أحدهم يقف بالخارج، وقف سبستيان من جلسته شاعرًا وكأن هناك شيئًا، تأمل الخارج ليجد شابًا غريبًا.. تسرب إليه القلق لوهلة فمفتاح المدينة لا يملكه إلا عدد معروف؛ هذا الوجه ليس واحدًا من أهل المدينة ، خشي أن يكون الرجل تابعًا لبيوس وقد فُضح أمرهم ، همس وقد بدا الاضطراب في صوته:

- من بالخارج؟ .

- مبعوث السيدة سيرين، من فضلك أريد الحديث معك بأمر رسالة أرسلتها معي .

اضطرب، قفزت داخل رأسه أكثر من فكرة، كيف له أن يصل إلى هنا ومن أي مصدر حصل على المفتاح؟ ، بدأ بربط الأحداث لثوان.. فكانت بداية الخيط والاس .

لكن لو وقع المفتاح بيد بيوس لكان أحرق المدينة بأكملها.. الأمر غير واضح.. انتبه

الجميع بالداخل، فتح الباب للشاب ثم وقف مقابل له هنيهة يحاول استيعاب الأمر، قطع حينها حيرته يحدثه:

- سأشرح لك كل شيء ولكني أريد الانفراد بك.. هكذا طلبت مني .

أخذه للداخل على مرأى من الجميع.. تساؤلات بدت ولم تخرج من أفواههم، وما أن انفرد به حتى استطرد:

- أنا ابن الخادمة التي تعمل على خدمة السيدة سيرين.

- كيف حصلت على المفتاح؟.

- افتح هذه الرسالة وستفهم كل شيء..

أخرج من جيبه جهازًا صغيرًا بدا سبستيان على دراية باستخدامه، ضغط زرًّا صغيرًا به فخرجت آشعة هولوجرام تمثلت في *سيرين* تحدثه..

سيد سبستيان كيف حالك؟.. اشتقت إليك أيها العجوز وأعلم أنك غاضب مني.. أعلم أيضًا أنك حزين ولكن الأمر ليس كما يبدو..

تنهدت.. دمعت عيناها، أكملت بصوت مضطرب:

بيوس قتل والاس، وأنا هنا لأن لا سبيل للثأر إلا ذلك..

وكأنها طعنة صوبت إلى قلبه.. رُغم توقعه لشيء كهذا إلا أن وقع الأمر عليه مؤلم، ظنَّ أن الأمر محض أوهام ولكنه الآن تيقن .

مفتاح المدينة أعطاني إياه والاس قبل اختفائه ووقوعي بين قبضة بيوس، كان يشعر بحدوث أمر مثل هذا.. أخفيته تحت جلدي فتحت جُرحًا لأخفيه وأخرجته عندما حان الوقت، عَلَّمَني قبل قتله كيف أخفيه فلا يضرني، طلب مني ألا أفعل ذلك إلا إن كان الأمر طارئًا لأنه مؤلم

قطعت الحديث بابتسامة..

لم يكن يعلم أن فراقه أعظم من أي ألم آخر ولا شعوري وأنا بالقرب من بيوس.. بيني وبين هذا الملعون عهد، يريد الزواج مني فساومته على الثقة بي لهذا السبب مرّ المفتاح والرسالة بسلام من بين براثن رجاله مع بعض الاحتياطات التي تعلمتها من والاس.. سأفعل كل ما أستطيع لأجل كسر هذا الكلب، بيني وبينك جهاد.. فقط فكِّر وسننفذ معًا.

انغلقت الرسالة وسبستيان شارد يفكر، قَتْلُ والاس جعل الأمر أكثر تعقيدًا لكن سيرين فتحت سبيل، القادم سيكون أكثر صعوبة .

رفع وجهه إلى جهاد، ابتسم ثم حدثه:

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟..

- بالتأكيد.

- ما الذي جعلك توافق على مساعدتها؟.

- لأني لست كلبًا .

ازدادت ابتسامته ثم أومأ برأسه..

- حافظ على المفتاح معك بدمك .. تعلم أنك قد تموت؟.

- أعلم .

تناول حينها عُلبة تحمل شريحة رقيقة.. طلب منه الكشف عن رقبته ثم حدثه:

- ستشعر بألم بسيط ولكن الأمر سرعان ما سيختفي.

حمل الشريحة بملقط ثم غرسها تحت جلد جهاد، تأوه متألمًا فتأسف سبستيان ..

- أعلم أنها تؤلم.. سيختفي الألم بعد خمس ثوان من الآن، هذا جهاز أستطيع به الاتصال بك.. حتى تكون بأمان زرعته تحت جلد رقبتك.. سأتواصل معك إن حدث جديد، فكن حذرًا أن ينكشف أمرك.

***

خرج جهاد يشق طريقه ويفكر فيما دار بينه وبين العجوز.. يشعر وأنه الآن يطرح اتهامات الفتاة ذات الشعر الأحمر وأنه ليس خائنًا.. وأن أمه الخادمة فخر أن يُنعت بمهنتها وشرفها.

- جهاد حبيبي.

- ماذا؟.

- هل ستستطيع؟..

- نعم يا أمي، لا تقلقي عليّ.

يفهم معنى أن تدفع أم ابنها وفلذة كبدها إلى هذا الطريق، مدى القلق والخوف ولكنها الرسالة التي حتمًا عليها أن تصل في النهاية.. فلا ظُلم يدوم .

***

خرج سبستيان من غرفته بعد فترة من الزمن ليست بالقصيرة، ينتظرون بالخارج.. ما قصة هذا الغريب الذي انفرد به وماذا يريد، علق على نظراتهم :

- في القريب سنبدأ.

شعور تسرب إلى قلوبهم ما بين رهبة وفرح.. يفهمون إلى ماذا يرمي ولا يعرفون ما قصده في هذا الأمر بالضبط، استطرد حينها:

- سنجتمع من جديد.. علينا أن نفكر معًا في القادم.

كأول صرخة لوليد وطأ لتوه الدنيا..

كأول خطوة لأسيرٍ بأقدام حافية على الأرض..

كأول شعور بالمطر بعد جفاف لسنوات عجاف..

هكذا كانوا ..

***

الثانية عشرة منتصف الليل..

صوت بالخارج، همس بروفيسور والتر لنفسه *ها قد بدأنا*.. تأمل الخيالات بالخارج، تناول هاتفه ثم نزل أسفل مكتبه..

بدا وكأنه يكتب شيئًا ما.. قام بحذفه ثم ألقى بالهاتف .

***

دخلت سارة على عبدالله أثناء ورديته الليلية بقسمات تحمل في طياتها الذعر تلتقط أنفاسها وكأنها نهاية الدنيا..

- ماذا هناك؟.

- بروفيسور والتر بين الحياة والموت .

- ماذا؟ .. كيف حدث هذا؟ .

- لا أعرف، حقًا لا أعرف ولا أفهم.. يقولون أن الموضوع به شبهة جنائية والشرطة الآن تتحرى عن الأمر.

صمت عبدالله قليلًا يفكر فيما يجري وكأنه يحاول تخمين الأمر، محاولة اقتحام الشقة ثم شبهة جنائية تخص السيد والتر بعد زيارته بأسبوع تقريبًا.. الأمر يبدو مريبًا .

- فيما أنت شارد؟ ..

- هاه؟.. لا شيء مهم، لكن.. أخشى أن يتم استدعاؤنا سيقومون بتفريغ الكاميرات بالتأكيد..

لنغلق المطعم وأوصلك.

- لا لن أتركك تعود مفردك.

- كما..

- كما ماذا؟

- لا شيء .

- خائفة، أليس كذلك؟.

- لا غير صحيح.

- خائفة كدجاجة.

- عبد الله لا تقل ذلك.

انطلقت ضحكة عالية من بين شدقيه يذيب بها جليد التوتر الذي احتل الموقف.. حدثته بغضب:

- غبي .

ثم سبقته إلى الخارج، استدار ولم يتوقف عن الضحك فسمع صوت فتحها للباب من جديد:

- ماذا؟ .

- ماذا ماذا؟.. الجو بارد بالخارج فدخلت.

- الجووو.. أها قلتِ لي.

صاحت بغضب:

- عبدالله لا تفعل ذلك..

- أنا لم أفعل شيئًا .

تركها ولم تتوقف ضحكاته ليبدل ملابسه بالداخل.. بينما يغلق زر قميصه سمع سارة تتشاجر مع أحدهم بالخارج، ارتفع صوتها.. خرج غير واعٍ ليجد سكيرًا يحاول مهاجمتها.. لكمه دون وعي فردَّ السكير اللكمة، ضربه عبدالله فوق رأسه ثم رماه بالخارج، أغلق الباب بعد أن هرب الأخير..

بملامح من الرعب حدثته:

- آسفة، أنفك ينزف..

- لا بأس، اهدأي.. رحل الآن.

همست إليه:

- أنا السبب في كل هذا..

اقتربت وعلى بُعد خطوتين توقفت، تمنت حينها لو تستطيع تضميد جُرحه ولكنها تعلم حدود عبدالله..

- أنتِ لستِ السبب في أي شيء، سآتي بالمعطف ولنرحل من هنا.

مسح أنفه بمنديل في خِزانته.. ارتدى معطفه ثم أخذها للخارج وقد أغلق الباب، لم يفعل معها سوى ما قد يجعلها تتعلق به أكثر وأكثر..

- آسفة .

قالتها بعينين دامعتين فلان لها..

- سارة لا بأس.. أنا بخير صدقيني، من الوارد أن تحدث مثل هذه الأمور والطبيعي أن أحميكِ.

عادت للصمت فليس لديها ما تستطيع الإجابة به.. هي من تحبه وليس العكس، الأفضل لها هنا أن تصمت، أي إجابة منها محض وَهْمٍ تسول به لنفسها وستدفع ثمنه.. حاولت ألا تفكر، لتستمتع ببعض الأمان بوجوده بدلًا من تكدير لحظاتها اللطيفة التي تقتنصها منه .

وصلا إلى شقته.. فتح الباب، دخلت كعادتها تبحث عن القهوة بينما استلقى متعبًا على أريكته بالصالة..

- عبدالله أين هاتفك؟، حاولت الاتصال بك قبل أن آتي إليك كان غير متاح.

أشار بإصبعه إلى غرفته..

- غالبًا انتهى شحن بطاريته.. بالداخل.

- مهمل .

- أسمعك..

- وأحمق أيضًا.

- على الأقل لست دجاجة .

قالها وضحك فاقتربت منه ملقية واحدة من الوسائد الصغيرة التي تزين الأريكة بوجهه..

- إن كان لديكِ المزيد أريني .

- مستفز .

- أعلم..

لم يكف عن إثارة غيظها والضحك على ردة فعلها حتى شعر أنها حقًّا متعبة.. طلب منها المكوث بغرفته حتى الصباح أما عنه سينام على الأريكة فاستجابت.

***

في اليوم التالي:

شق مسامعهما صوت الباب في الصباح الباكر.. لم يناما جيدًا، نهض من مضجعه مجيبًا.. تأمل العين السحرية ليجد فردين من الشرطة.. قطع المشهد خروج سارة من الغرفة، سألته بصوت ناعس:

- ماذا هناك عبدالله؟ .

- إنها الشرطة .

فتح الباب..

- ما الأمر؟ .

- نحتاجك بمعضلة صغيرة ومعك السيدة سارة إن أمكن .

أومأ برأسه، طلب تغيير لباسه ثم رافقا الشرطيين اللذين اصطحباهما بسيارتهما وبالمقر وضح المكلف بالتحقيق سبب استدعائهما.. إنه ما حدث للسيد والتر، وَجَّهَ الحديث لكليهما:

- لقد وُجد غارقًا في دمائه تعلمان بالأمر .

أجابت سارة:

- نعم، علمت ذلك بجامعتي .

- أفرغنا الكاميرات المحيطة بمنزله لنصل لأي شيء.. بدا مهووسًا بالمراقبة.. يوم الحادث تبين أن الكاميرات تم تعطيلها بشكل ما فلم يظهر أي من مرتكبيه ولا كيفية دخولهم المنزل.. تبين أنكما قمتما بزيارته قبل الحادث بأسبوع، ما علاقتكما به وما سبب زيارتكما خاصة ومعروف عنه أنه لا يستقبل أحدًا بشهادة جيرانه.

- سيدي إنه أستاذي بالجامعة.. ذهبت للاستفسار عن أمر دراسي وأخذت معي صديقي .

- أخبرتنا السيدة روز جارته أن السيد والتر رفض استقبالكما وقد كان صوته مرتفعًا وهو يهددكما بالاتصال بالشرطة.

ردّ عبدالله:

- لنفس السبب الذي تحدثت عنه يا سيد، أنه لا يحب استقبال أحد .

- ما السبب الملح دراسيًا الذي يجعلكما تذهبان إليه ومن الممكن أن تلقاه الآنسة بالحرم الجامعيّ .

أجابت سارة:

- أمرٌ نطاقه أوسع من المواد الدراسية يخص نظريات أينشتاين بما أنه أستاذ الفيزياء لديّ.. كل الأمر أنني من محبي المعرفة، أظن أنه ليس من الغريب أن تزور تلميذة أستاذها لتنهل من علمه .

أومأ المحقق برأسه ثم حدثهما:

- سأسمح لكما بالانصراف، لكن إن توصلنا لشيء أو توصلتما أنتما لشيء سنكون على تواصل.

انصرفا تاركين مقر الشرطة.. أوقف حينها عبدالله سيارة أجرة، تأملت صمته.. كان شاردًا فيما عليه فعله، تعلم أنه يساوره القلق كما يساورها هي الأخرى؛ سألته:

- أين سنذهب؟ .

- شقتي.

- ولكن ..

- أعلم ما يجول بخلدك يا سارة، هُناك سنحاول أن نفكر فيما علينا فعله الأيام القادمة، الأمر بات معقدًا أكثر من اللازم وأخشى أن يكون السيد والتر في هذه الورطة بسببنا .

انكسرت عيناها..

- أنا الأخرى أشعر بذلك .

الكتاب معك؟ .

أظهر حقيبته ثم هز رأسه في إيجاب.. شعرت حينها بارتياح فليس من الحكمة تركه وخاصة والخطر في ازدياد .

ما أن وصلا إلى الشقة وفتح عبدالله الباب حتى وجدا كل شيء رأسًا على عقب.. أحدهم اقتحم الشقة، أهذا سطو أم أن الأمر أكبر من ذلك؟.. دب الرعب بقلب سارة فقد تأكدت الآن أن شكوكهما حقيقة، خاصة بعد أن فتشا ولم يجدا أي شيء من مقتنيات الشقة مفقودًا ، استطردت بصوت مضطرب:

- أحدهم يبحث عن الكتاب .. سأبلغ الشرطة.

- لا تفعلي .

الأمر سيصبح أكثر تعقيدًا إن فعلنا .

سارة اسمعيني..

انتبهت له..

- أعلم أن لا ذنب لكِ في كل هذا، صدقيني أنتِ لستِ مجبرة على إكمال هذا الطريق معي.. أحدهم على مشارف الموت بسببي وأنا أخشى أن يصيبكِ مكروه.

صاحت فيه بانفعال:

- ماذا تقول عبدالله .

- أقول ما لصالحكِ الآن وعليكِ أن تستجيبي ، عودي لسكنكِ الصغير ودراستكِ.. عيشي حياة طبيعية كأي فتاة.. الأمر أصبح معقدًا ويزداد تعقيدًا ولن أسامح نفسي إن طالكِ ما طال السيد والتر.

- عبد الله كفاك أنا لن أتركك أبدًا .

صمت لوهلة تبدلت بعدها ملامحه، ثم استأنف بصوت غاضب:

- لا أريدكِ.. وعليك الرحيل الآن .

- عبد الله .

- ماذا؟.. أعجبتك اللعبة؟، لازلت تحبيني أليس كذلك؟ .. تطمحين لو أبادلكِ المشاعر لذلك بقيتِ..

تأملته باندهاش.. مسّ كرامتها:

- لن أعجب بكِ.. حاولت ولم أستطع، لا تشبهين النساء اللائي من الممكن أن أعجب بهن .. عنيدة ومتهورة وتظنين أنك تملكين زمام الأمور، الحقيقة غير ذلك.. أنت مجرد مغفلة .

لم تستطع مقاومة دموعها، سقطت رُغمًا عنها.. جذبت حقيبتها وهرعت إلى الخارج.. يكسرها للمرة الثانية وفي ظنه أنه لصالحها.. كادت أن تخونه قدماه ليلحق بها ولكنه منع نفسه، هكذا ستكون في مأمن بعيدًا عنه ، مشاعر متداخلة.. عليه أن يفكر في القادم مفرده دونها وذلك الأمر صعب، انشطارها عنه أضعفه.. كان يفكر بها وتفكر له، أما الآن ..

عِندما تتعقد الأمور، يفقد الإنسان قدرته على الإدراك.. الاتزان؛ للدرجة التي قد تصل إلى خسران أقرب الأشخاص له.. وما أن يستفيق قد يصبح الندم حليفه إلى نهاية العمر .

بكت سارة حتى فقدت القدرة على السمع والرؤية.. لا ترى المارين حولها ولا تسمع أصواتهم، أهذا ظنّه فيها منذ اللحظة الأولى التي اختارت فيها البقاء إلى جواره؟ .. أكانت تُنزل من نفسها دون أن تشعر؟ .. أهذه إجابة لكل ما فعلته لأجله؟ .. هو لم يختلف عن الآخرين .

عادت إلى منزلها كَارهة للدنيا، تمنت لو لم تقابله من الأساس، لو لم يدفعها تهورها للاقتراب منه أو محاولة التعرف عليه.. هي متهورة، هو محق.. فلولا هذا ما كانت ما

عليه الآن .

***

جلس عبدالله على رُكام ما تحطم متنهدًا يتأمل ما حوله، أرجع رأسه إلى الوراء مسدلًا جفنيه تعبيرًا عن إرهاقه وتعبه.. حدّث نفسه *ما الذي عليّ فعله الآن؟ *.

يعلم أنه لن يستطيع البقاء بالشقة، أصبح الأمر خَطِرًا هنا.. عليه البحث عن سكن جديد وعمل جديد أيضًا، جمّع حاجياته بحقيبة ظهر كبيرة ثُمَّ التقط الكتاب، أمعن النظر فيه ثم همس *بقيَ مُفتاح.. تُراه أين؟ *.

ثم عاد يفكر في سارة.. كانت عيناه، أما فعله كان مُحقًّا فيه أم أنه لم يكن عليه أن يفعل ذلك .. يريد فقط لو تسامحه وتعلم أنه فعل ذلك لمصلحتها..

تذكر سلمان صديقه من المغرب، ماذا سيقول له بشأن الشقة؟ .. إنها تحتاج لكثير من التصليحات كما أنه لم يعد بمقدوره البقاء فيها بعد ما جرى، أمسك هاتفه الذي خصصه للعمل فخاصته لازال يحتاج للشحن وحاول تبرير الأمر:

- سلمان، كيف حالك.. اشتقت إليك.

- وأنا الآخر.. آسف لأني قمت بمد إجازتي دون أن أعلمك، نسيت .

- ماذا؟ .. قمت بمدها؟ .

- نعم .. ما الأمر، ما بال صوتك؟.

صمت لوهلة ثُم عاد محاولًا الشرح:

- الشقة تحطم كل ما فيها بالكامل .. عُدت من العمل لأجد كل ما فيها محطم على الأرض.

- أبلغت الشرطة؟.

- لا..

- لماذا؟ .

- الأمر معقد، أخبرتك بالأمر لأننا شركاء.. سأصلح كل شيء أعدك قبل أن تعود.

- لا بأس المهم أنك بخير .

أنهى المكالمة.. حمل حقائبه ثُم خرج من الشقة مغلقًا الباب بالمفتاح، فتحت الجارة اليافعة عندما شعرت به، وقفت أمام شقتها، التفت إليها فرفعت كفها إليه:

- أهلًا.

رفع عبدالله حاجبيه تعبيرًا عن استغرابه ثُم أجاب:

- أهلاً .

- هل ستترك الشقة؟ .

صمت حينها، لم يجب.. من أين لها أن تعرف أنه سيتركها، بالتأكيد سمعت هؤلاء الرجال عند اقتحامهم إياها .. قطعت صمته.

- أنا سمعتهم..

- ولم لمْ تتصلي بالشرطة؟ .

- خِفت .

- من ماذا؟ .

اقتربت منه ثم همست إليه:

- لا أعرف.. ولكني أعيش مفردي ، الخوف سيطر عليّ فتوقف عقلي، تدري ما هو شعور امرأة تعيش مفردها؟ .

هزّ رأسه في علامة على تفهمه، استأذنها في الرحيل فأمسكت كفه في رقة..

- يمكنك المبيت في شقتي الليلة إن أردت..

جذب كفه كمن قرصه ثعبان.. بلع ريقه مبتعدًا خُطوة، اعتذر:

- أعلم وجهتي.. شُكرًا على محاولتك في مساعدتي.

تركها هاربًا بنفسه من فاحشة شعر أنه اقترب من أن يقع فيها ، فلا هذا هو ولا لن يكون أبدًا .. ضربت سارة رأسه من جديد، تذكر غيرتها عندما رأت هذه المرأة تقترب منه، يبدو أنها كانت تعلم مبتغاها من البداية .

وقف على الرصيف منتظرًا الحافلة، عقله معها.. أيتصل بها؟ .. تأمل الهاتف ثم حدّث نفسه:

*لا لن أفعل *.. ثُم عاد شاردًا فلانت ملامحه.. أمسك الهاتف يتأمله من جديد، فتح قائمة المسجلين يبحث عن اسمها ثم ضغط اتصال.

رن الهاتف وقلبه لا يتوقف عن الخفقان، لا يعلم بماذا عليه أن يتفوه بعد ما قاله ولكنه يريد أن يحادثها، لم يعتد منذ فترة ألا تكون هنا ..

لا تجيب ، عاود المحاولة للمرة الثانية.. الثالثة، ثُم مرة أخيرة.. أيضًا لا تجيب ، بدت على قسماته الخيبة..

على الجانب الآخر تأملت هاتفها الذي لا يكف عن الرنين، ترقرقت دموعها الحارة على شاشته التي أضاءت باسم عبدالله، استعادت كل ما قاله منذ أن تركته حتى لا تضعف فتجيب.. تود لو لَبَّتْ ولكن الأمر داخلها جلل، ماذا سيقول وأي كلمات تحمل مصابها إليه؟ .. تدري ما الألم الأخرس؟ ؛ ذاك الذي تعجز اللغة عن شرحه.. هذا ما شعرته.

وصلت الحافلة.. وطأها ثم جلس على أحد الكراسي مسندًا رأسه شاردًا في الطريق.. توقفت من جديد ، إنه الحي الذي تسكن فيه سارة.. أيذهب إليها؟ .. لا لن يفعل .

*سارة إنه أنا.. افتحي الباب *..

ولكنه قد فعل ، يضرب بابها مِرارًا مِرارًا ولا تجيب.. أرسل لها بأخرى:

* لن أرحل من هنا حتى تفتحي الباب *.

مسحت دموعها وهي تقرأ رسالته.. الغضب الذي يحمله صدرها له الآن أكبر من أن تبتسم لرسالته ككل مرة، تناولت هاتفها..

*ارحل من هنا وإلا سأبلغ الشرطة *.

تبدلت قسمات وجهه العابسة إلى أخرى أقل ضغطًا، على الأقل أجابته..

أنا آسف..

*ولكني حقًّا خشيت أن يصيبك ما أصابه فاضطررت إلى قول هذا .. لا تسامحيني ولكن افتحي الباب لنتفاهم *.

سمع صوت باب الشقة يُفتح.. ولكنها لم تكن خلفه، أكمل فتحه في هدوء ثم ولج للداخل.. أغلقه ثم التفت.. وجدها جالسة في ضوء خافت وكأنها لا ترغب في إن يرى وجهها.

- هل يمكنني فتح إضاءة مرتفعة أكثر؟ .

- لا .

أجابت بصوت مشروخ، بدا وكأنها تبكي منذ أن غادرت.. صوتها آلمه، فتح الإضاءة وكأنه يريد أن يرى ما اقترفت يداه.. أخفت وجهها بين كفيها، اقترب منها بأقدام متثاقلة وعلى بُعد عدة أقدام همس لها:

- هل يمكنك أن تزيلي كفيك عن وجهك؟.

لم تجبه إلا بالبكاء، اضطرب أكثر..

- أنا آسف حقًّا آسف.. اهدأي؛ والله لم أقل ذلك إلا لأجلك ولا أعنيه ولا في رأسي ولكني اخترعت هذا الكلام فقط لأني غبيٌّ.

سقط كفيها عن وجهها ضعفًا، يزداد بكاؤها كصغير انفطر.. الأمر آلمها حقًّا، مسَّ

كرامتها وكيانها كأنثى..

ما أن رأى عبدالله عيناها حتى صُعِق ، كانتا منتفختين لدرجة قد لا تستطيع بسببها الرؤية.. تشعبت شعيرات حمراء صغيرة.. امتقع لون وجهها وانتفخت شفتاها..

- يا إلهي ماذا فعلت .. أنا آسف، اهدأي يا سارة من فضلك.

والله لم أقل إلا بهتانًا، كنت غبيًّا ظننت أن هذا لصالحك.. أنا لا أقسم بربي كذبًا .

حاولت مسح دموعها ولكن جفنيها المنتفخين آلماها.. التهبا من كثرة البكاء، ذهب إلى البراد يجلب بعض الماء المثلج.. ثُم فتح الخِزانة بالمرحاض لجلب القطن، غمس القطن في الماء ثم طلب منها أن تضعه على عينيها حتى يخفف من الالتهاب .

- نذهب إلى الطبيب؟ .

- لا.. سأكون بخير.

أخذت القطن المبلل وفعلت ما طلبه منها، حدثها بينما انشغلت بفعل ذلك:

- أعلم أن ما ارتكبته عظيم.. أعظم من أن تسامحيني عليه، ولكني أتمنى فقط أن لا تكرهيني .

رفعت القطن عن عينيها، أجابت بصوت على وشك أن يعود للبكاء:

- أنا لا أكرهك عبدالله

أنا لا أستطيع أن أكرهك..

أخرسته إجابتها.. كيف لمن يكن له كل هذا التسامح أن يفعل به ما فعل، شعر كم كان أحمقًا وغبيًّا، نَدم على ما قاله.. تمنى لو انتقم من نفسه لها.

- عبد الله .

انتبه لها..

- من فضلك، لا تفعل بي هذا ثانية .. لا تخيرني بينك وبين كرامتي، هذا مؤلم حقًّا .

- لن أفعل.. آسف، وأعرف أنها لن تُخفف من وطأة ما حدث .

- لا بأس.. ما حدث قد حدث.

أثق بك، وأعرف أنك لن تفعلها ثانية.

عليه ألا يقرر مفرده بأمر له فيه شريك، أدرك أن ما ارتكبه كان محض أنانية منه.. كان عليه أن يخيرها قبل فعل هذا.. ولكنه الآن تعلم .

***

الفصل السادس

وكأن الحياة ومع آخر قطرة أمل؛ تبدأ بدفعك باتجاه آخر ما تكن لتراه أو تلمسه يداك ولكن لا سبيل .. منذ عدة أيام وسبستيان يفكر؛ أيخبر نضالًا بموت والاس ويخيره أم يحتفظ بذاك لنفسه ويكمل بنضال للنهاية .. لو اختفى نضال سيدرك البقية بأمر والاس وسيصبح الأمر معقدًا ولا يريد أي احتمالات للخسارة.. لكن في النهاية اختار إخباره وترك الخيار له.

خرجت تيا من المنزل لقضاء بعض الحاجيات، ناداه:

- نضال.. أنت شاب طيب وأنا شاكر لصبرك معنا..

أومأ برأسه، بدا وكأنه ينتظر ما بعد هذه العبارة فأكمل سبستيان:

- قُتل والاس.. أردت أن تعلم بذلك.

انقبض قلب نضال.. لا يعرف لماذا ولكنه شعر وكأنه يعرف والاس منذ زمن بعيد، تداخلت مشاعره واضطربت..

- قتله بيوس؟ .

تعجب من ردة فعله ، لم يتوقع العجوز أن يتأثر بمثل هذا فكل ما يهمه أن يخرج من هذا المكان عائدًا لموطنه .. أجابه بإيماءة ومقلتين منكسرتين.

- أنا أخيرك ولك كامل الحرية، إن أكملت سنظل كما نحن.. أنت والاس حتى النهاية.

صمت وهلة ثم سأله:

- وإن لم أُكمل؟.

- سأواجه الجميع بالحقيقة، ولا أعلم أي رد فعل لهم سيكون.. انفتح سبيل للنجاة وأخشى أن يتعقد الأمر من جديد.

- ماذا تقصد .

- سيرين.

- خطيبة بيوس؟.

- كنت محقًّا قد أُجبرت، هي من أرسلت لي الشاب منذ أيام تعرض المساعدة.. ولكنها ساقت إليَّ مقتل والاس..

أنا أحتاجك.. لكن لا تلتفت إن اخترت أن تنأى..

وعدتك بالعودة وأنا أعمل على ذلك أيًّا كان اختيارك .

سأدعك تفكر خذ وقتك وأنا أنتظرك.

قطع حديثهما صوت تيا بالخارج، أشار سبستيان إليه بالصمت.. دخلت عليهما تحدثهما:

- ألستما جائعين؟ .

هزا رأسيهما في إيجاب فهمَّت بتحضير الطعام .

***

حَلّ الليل وسطع قمر أندروميدا في السماء يوازي قمر المراقبة.. نام الجميع عدا نضال الذي أرقه كلام سبستيان فماذا عليه أن يختار؟ .

سمع صوت أقدام بالخارج.. نهض من مكانه سائرًا على أطراف قدميه، إنها تيا مرتدية زي التخفي ؛ تُراها إلى إين ذاهبة في هذه الساعة الخطرة على سطح الكوكب .

جذب ردائه هو الآخر ولحق بها دون أن تشعر.. وما أن فتحت بوابة عبور حتى تبعها قبل انغلاقها.. تشق الشوارع وهو من خلفها حتى صعدت أحد التلال المحيطة بمدن أندروميدا.. ظلام دامس، هدوء مريب.. هواء بارد؛ وصوت العشب ورائحته.. بركان من الدموع انفجر .

نعم.. إنها تيا تبكي؛ المرأة القوية التي يشبهونها بالرجال من صلابتها خَرَّتْ قواها على العشب، تسترت بالظلام حتى لا يرى أحدهم انهيارها.. يراقبها نضال من بعيد ويفكر؛ أيقترب الآن أم عليه أن ينتظر..

- تيا .

شقّ صوته بكاءها.. صمتت لوهلة تحاول استيعاب ما يدور، التفتت إليه لتجده.. صرخت فيه بصوت شَجِن:

- ما الذي أتى بك إلى هنا .

- آسف.. قلقت عليك.

عادت للبكاء..

- ما كان عليك اللحاق بي، ما كان عليك أن تراني هكذا .

اقترب منها بخطوات ثقيلة وكأنه يخشى أن تجرحها خطواته.. همس إليها عن قرب:

- لا بأس تيا..

رفعت وجهها إليه تنظر إليه بعينين دامعتين، انسحبت دموعها تدريجيًّا ثم هدئت كطفل.. استطرد في لطف:

- كل هذه الدموع؟.

أطلقت تنهيدة تطرد بها حرارة لوعتها.. تربع الألم داخل صدرها..

- أشعر بثُقل ما .

- أين؟.

- هُنا .

ضربت على صدرها.. يعلم ما تعنيه، تأملها بعينين حزينتين.. غَرِقا في الصمت، ولكن تيا .. لم تعد تستطع المقاومة وكأنها خزَّنت دموعها لسنوات وقد آن لها أن تخرجها كلها دُفعة واحدة.

- كُنت أحبه .. أحبه أكثر من نفسي.

عاد نضال للالتفات إليها دون أن يتفوه بكلمة.. ترك لها المجال للحديث فلتُخرج ما بجعبتها كله ..

- لم يرني سوى *تيا* الفتاة التي ترتدي جلد الرجل، لم يستطع حتى سماع قلبي.

أنا جيدة في إخفاء مشاعري.. ظننت أن عليّ أن أدفنها طالما لم يبادر..

ولكني.. لكني أحبه .

التفتت إليه هي الأخرى..

- أتفهمني يا نضال؟ .

اتسعت محجريه صدمةً، بماذا نعتته؟ .. أيتخيل؟ .

- أعلم أنك لست والاس منذ الوهلة الأولى.. والاس لديه ندبة عميقة بطول ظهره إثر جرح كبير كاد أن يقتله..

تتذكر عِندما مزعت قميصك ليداوي سبستيان جُرحك، أيقنت يومها أنك لست والاس لكني لم أبرز ذلك.. لم أخبر حتى سبستيان.

- لماذا؟ .

- أردت بقاءك للدعم حتى عودة والاس.. لم أعلم أنه على دراية بالأمر هو الآخر.

- كيف عرفتِ أنه يعلم؟ .

انكسرت نظرتها.. استأنفت:

- سمعت كل شيء تحدثتما عنه..

سمعت ما أخبرك به حول سيرين..

الفتاة التي خطبها والاس ولم أكن أعرف عنها أي شيء حتى هذه اللحظة .

- الشاب الذي تحبينه.. والاس؟ .

أومأت برأسها.. عادا للصمت، ماذا عليه أن يقول وماذا عليها أن تضيف؟ ، يتأملان البيوت الخربة هناك..

- شكرًا لأنك بقيت إلى جواري.

- لا بأس .

كوني بخير فقط.

ابتسمت حينها..

- أتمنى ألا تخبر أحدًا بما سمعت أو رأيت .

- لا تقلقي.. لنعد.

- لا .

استوقفه رفضها.. فأكملت:

- ماذا ستفعل يا نضال؟

أكمل صمته متأملًا إيَّاها.. ثُم علق ناظريه على البيوت المتراصة هناك، لا يعرف بماذا عليه أن يختار؟..

- تعلمين يا تيا؟.

البيوت هنا تشبه القبور على كوكبي، أتخيل مثلًا إن حُبِسَ حيٌّ بقبر ومررت قدرًا بجواره وسمعت استغاثته، سأكمل الطريق ولا ألبي أم سأساعده .

تنهد وصمت هنيهة، عاد مكملًا:

- أظن أن عليَّ المساعدة بفتح هذه القبور ليخرج منها الأحياء هناك .

***

في خلال فترة ليست بالبعيدة استطاعت سيرين كسب ثقة بيوس؛ حتى أنها باتت تتحرك بكل شِبر يخصه دون حراس أو مراقبة.. وكأنما أعماه الحب فلم يعد يخشى أي خيانة، أقنعته كونه السبيل الوحيد لها الآن فلو طالوها لقتلوها.. هلاكه بات هلاكها.

- تعلمين أني أحبك سيرين؟.

- أعلم .

- هل لي...

اقترب منها فدفعت به برقة فلا يظنها تنآه.. أجابت بهدوء:

- بيوس لا تفعل .

- إذن متى أفعل .

- بعد زواجنا.

- ومتى ستوافقين على هذا؟ .

- عِندما أثق بك.

- كل هذا ولا تثقين بي؟ .

- لازلت غامضًا بالنسبة لي .

عندما أشعر بأني أعرف عنك كل شيء حينها وفقط سأكون لك.

تأملها بعينين ثابتتين متلهفتين وكأنه يفكر في تلبية ما تريد.. وقف في هدوء وقد أمسك بردائه، حدثها:

- سأغادر الآن .

- هكذا؟ .

وقفت مقابلًا له، تركت قُبْلَةً سريعة على خده لتزيد من تلهفه وثقته فيها، همست له:

- لا تنسَ ما اتفقنا عليه.

تركها ولا يريد تركها.. وما أن اختفى من الغرفة حتى تبدلت معالمها إلى التقزز والاشمئزاز، بصقت تعبيرًا عن قرفها وكأنها قبَّلت جيفة .

يحفر قبره بفأس شهوته، تمهد له الطريق لذلك وهو يستجيب بإجادة .

***

دخل نضال على سبستيان محدثًا إياه:

- اجمع لي الشباب.

- لمَ؟ .

- والاس عليه أن يفكر في كيفية الحشد لبدء الحراك.

لم تظهر على سبستيان أي علامات لردة فعل معينة، تنهد ثم صمت وهلة يفكر عميقًا بكلماته:

- نضال .

رفع وجهه إليه..

- تُدرك ما تقوله؟ .

أومأ برأسه فانكسرت نظرة سبستيان..

- تعلم أن هذا الطريق قد لا تعود منه؟.. ربما لا تبقى حتى انتهائي من مراسم نقلك إلى عالمك .

مستعد للمجازفة؟ .

- نعم.

ابتسم..

- سأجمعهم لك والاس .

نهاية البداية.. أو بداية النهاية، لا أحد يدري أي مصير ينتظر هؤلاء ..

***

أنا وأنت وجهان لعملة واحدة سقطت من جيب غريب في ليلٍ ماطر.. تدحرجت على الأرض حتى وقفت على حافتها بالقرب من فتحات مصرف.. تكاد تسقط..

أنا وأنت كطائرين تاها عن السرب في سماء ملبدة بالغيم، يقاومان عكس الرياح وتيارات الهواء..

أنا أنت يا عزيزي وإن لم تشعر بي.. أنا أنت .

نام عبدالله على الأرض بالقرب من أريكة احتضنت سارة المتعبة حتى الصباح، استيقظت قبل استيقاظه.. اقتربت منه توقظه بلطف تناديه بصوت خفيض:

- عبدالله.. استيقظ

علينا أن نغادر .

فتح عينيه الداميتين وكأنه دخل في النوم لتوه، لم يأخذ قسطًا كافيًا منه.. اكملت:

- آسفة.. سأعد لنا شيئًا نأكله فجهز نفسك.

مسح وجهه يحاول استيعاب ما يدور من حوله، رفع عن نفسه الغطاء بينما دخلت لمطبخها المطل على الصالة لصنع شطيرتين لهما وتحضير كوبين من القهوة..

جلسا لتناول أطباقهما في صمت.. فتحت سارة حاسوبها النقال فالتفت إليها:

- ماذا تفعلين؟ .

- أتفقد بريدي الإلكتروني، لم أذهب للجامعة منذ أيام.

لاحظ تغير ملامحها أثناء شرودها في الشاشة..

- حدث شيء؟ .

أجابته بنصف ذهن والكلمات تزحف من فيها:

- لا أعرف.. بريد مجهول يحمل خريطة ما.

- قد يكون مرسلًا بالخطأ.

- لا..

الراسل كتب لي في بداية الرسالة *عزيزتي سارة*..

خيم الصمت.. أمعن التفكير، رفع وجهه إليها محدثًا إيَّاها:

- اعطني الحاسوب من فضلك.

أزاحه من أمامها وبدأ بتفقد الرسالة، يبحث عن أي شيء يبدو غريبًا، التاريخ ..

- سارة.. أليس هذا نفس التاريخ الذي تم فيه مهاجمة بروف والتر .

- دعني أرى..

سحبت من أمامه الحاسوب..

- نعم.. ولكنها مرسلة بالصباح..

- أشعر وكأن السيد والتر من أرسلها.. من الغريب أنه لم يكتب أي تعليق عليها، لأي دولة هذه؟ .

- يمكنني عمل بحث على الإنترنت بالصورة.

حاوَلَت.. *لا يوجد نتائج*.. همست إليه بنبرة محبطة:

- هذا غريب ، إن كانت الخارطة تخص مكانًا على الأرض لأظهر جوجل هذا ..

أين هاتفك؟..

- ها هو .

- إن بطاريته فارغة.. عبدالله، أنت لم تقم بشحنه عندما أخبرتك؟..

شعر بالتوتر لصراخها.. بدت كأم تأنب طفلها الذي لم ينه واجباته.. أكملت:

- كنت تراسلني من هاتفك المحمول الخاص بالعمل.

- آسف..

أوصلته بوصلة للشحن ثُم ضغطت زر الطاقة لفتحه.. كان كالغريق الذي عاد للحياة، رسائل رسائل.. هناك رقم غريب من بين الأرقام يحمل رسالة ما..

* روز، الخارطة.. العجوز*..

فتحت هاتفها تبحث عن اسم السيد والتر، إنه نفس الرقم ..

- عبدالله أعطيت هاتفك للسيد والتر قبل مغادرتنا؟.

- نعم.. طلبت منه أن يكون على تواصل معي، لكنه لم يقم بتسجيله .

أمليته عليه فبدا غير مهتم..

- لديه ذاكرة رقمية.

هو بالفعل من أرسل الخارطة.. الرسالة في الثانية عشرة وثلاثة عشرة دقيقة في نفس يوم إرسال الرسالة الإلكترونية..

- يوم الحادث .

- نعم.. وبما أنك لم تقم بشحن هاتفك وتعتمد على هاتف العمل المحمول لأنك مضطر لشحنه فلم تصلنا الرسالة إلا الآن..

اقترب عبدالله بكرسيه من سارة ثم بدأ بتأمل الخارطة ورسالة بروفيسور والتر بالهاتف المحمول خاصته..

- أليست روز هي جارة السيد والتر التي حدثت الشرطة عنا؟.

ضحكت حينها مجيبة إيَّاه:

- نعم هي .

- إن فعلت بنا هذا وهي لا تعرف عنا شيئًا، ماذا إن حاولنا زيارتها.. ستقتلنا؟ .

ثم ضرب ناصيته ممتعضًا يحدث نفسه *لماذا يا سيد والتر؟ *.. ثم عاد ملتفتًا إلى سارة..

- لم كل شيء صعب هكذا .

- إنه رجل حذر، لا أظنه سيختار بأمر كهذا إلا شخصًا صعب المراس أمينًا..

- علينا زيارتها .

احزمي أمتعتك لأننا لن نبيت هنا الليلة أيضًا.. وجودنا هنا يشكل خطرًا.

أومأت برأسها، لم تشعر بتوتر أو قلق.. رحلتها معه لا بأس بها مهما كانت درجة صعوبتها، الدرب أكثر متعة مع من نرغب مشاركتهم الطريق .

هو الآخر برغم عدم انجذابه كانت له نجومًا زينت السماء في ليل حالك.. آنسته حتى أنسته وحشة الطريق .

***

أغلقت سارة شقتها.. يسيران معًا، استقلا حافلة عائدين بها إلى حي السيد والتر من جديد في محاولة للحديث مع السيدة روز كما حوت رسالته..

مَرَّا على بيته، لانت نظرة سارة حزنًا عندما وجدت شرائط الشرطة حول المنزل في إشارة لعدم اقتراب أحدهم ثم التفتت إلى المنزل المجاور.. استوقفت عبدالله:

- أظن أن هذا منزلها، أخبرنا الشرطي أنها جارته..

البيتان يفصل بينهما سور أخضر، عادة ما تجد في هذا الحي أسماء أصحاب المنازل على لوح صغير أمام الباب، اقتربا من المنزل يتأملان اللوح *روز تشارلز*..

قامت سارة بضغط الجرس، فتحت الباب دون حديث..

- سيدتي نحن..

- سارة وعبدالله، أعلم .. ادخلا .

تعجبا من ردة فعلها فقد بدا عليها العلم بأمر قدومهما.. قادتهما حيث مكان الجلوس وجلست بالمقابل..

- أعلم أنكما متعجبان لكوني أعلم بأمركما .

نظرا لبعضهما البعض ثم عادا للنظر إليها..

- أنا بالفعل لم أكن أعلم عنكما أي شيء، حتى والتر لم يتحدث معي عن أي شيء.. أنا وهو أصدقاء منذ أن أتى إلى الحيّ، لا أعلم عنه الكثير ولم أكن أحاول أن أعرف.. هو رجلٌ جيد وكان هذا كاف لنكون صديقين.

حينها استأنفت سارة:

- إذن سيدتي.. من أين علمتِ بأمرنا أو أننا سنأتي إليكِ .

تكعكعت ثم أطلقت تنهيدة حزينة.. التقطت عبوة سجائرها من المنضدة أمامها ثم أشعلت سيجارًا..

- قبل الحادث بيومين أعطاني مظروفًا أخبرني ألا أفتحه أبدًا إلا إن أصابه مكروه.. وكأنه كان يعلم أن ما حل به سيحل .

كان الحادث أليمًا بالنسبة لي.. أنساني نفسي، تحدثت في التحقيقات بما علمتما به.. لم أر سواكما فكما تعلمان لا يزوره أحد .. ما أن بدأت أتوازن حتى فتحت المظروف..

أخرجته ثم أعطته لهما.. فتحته سارة، يحوي رسالة ما..

* عزيزتي روز.. كيف حالك؟، أتمنى أن تكوني في خير حال.. أنا الآن على مشارف الموت إن لم أكن ميَّتًا ، لا أريد منك الحزن.. كوني امرأة قوية كما أعرفك دومًا.. أعلم أن ما أمنتك عليه ليس سهلًا ولكني أدرك جيدًا أنك الشخص المناسب لهذا، سيأتي إليك فتاة وشاب سارة وعبدالله.. ليأخذا الخارطة إلى العجوز، هناك النهاية*.

وفي نهاية الرسالة عنوان ما أشارت إلى عبدالله به..

- أظنه يخص العجوز ..

عادت السيدة روز للحديث:

- اسمعا.. بالتأكيد أنتما مراقبان، ستخرجان من هنا بشكل أعتذر عليه.

صرخت بشكل مسموع:

- أخرجا من بيتي ..

أنا حمقاء .. كيف لي أن أستقبل غرباء لا علاقة لي بهما ولا أعرفهما .

ساقتهما للخارج دفعًا ثم همست بصوت شبه مسموع عند الباب:

- كونا حذرين .

وما أن مسّت أقدامهما العتبة حتى عادت للصراخ:

- أغبياء .

ثم ضربت الباب بعنف.. حينها رفعت سارة صوتها بعبارات غاضبة لتختم المشهد.. ابتعدا عن المنزل بملامح تحمل الغضب..

استقلا سيارة أجرة.. التفتت سارة إلى عبدالله تحدثه:

- إلى أين؟ .

- لا أعرف ..

فتح الورقة من جديد، بدأ بتأمل العنوان بالرسالة ثم همس إلى نفسه *تُرى ما قصة العجوز هذا؟*..

- علينا السفر إلى اسكتلندا.

- الآن؟ .

- لا.. سنبيت بفندق الليلة وفي الغد نتحرك.

***

حفظت سيرين كل منطقة بمحيط بيوس، اسم كل حارس.. نقاط ضعفه، حتى أسماء رجاله التي لا يعلمها سواه ومساعده.. المداخل والمخارج عدا منطقة واحدة لم يكن يعلم عنها سواهما، أدركتها بينما كانت تراقب *بلاس*..

تسللت حيث مساحة ضيقة لا تحمل أي كاميرات مراقبة، قديمة جدًا ربما تعود إلى ما قبل الثورة المتقدمة التي شهدها الكوكب قبل اغتصاب بيوس.. همست لنفسها:

*لم المكان قديم إلى هذا الحد؟.. ولم ممنوع التجول هنا؟ *..

فتشت في كل رمق تبحث عن باب سري؛ لم تجد.. حتى سمعت خطوات بلاس، تخفت لتجده يفتح بابًا يشبه باب مدينة العلماء .. اتسعت عيناها، همست لنفسها *أتوصلوا للغز الانتقال؟ ، هذا الأمر لا يعرفه سوى سبستيان ووالاس قبل مقتله، أعذبوه حتى أعطاهم طريقة فتح بوابة؟*.. وقبل أن تنغلق قفزت داخلها..

مطلة على سُلم حديدي قديم، استقلته حتى نهايته.. السُلم مؤدي إلى مكان واسع مجهز بشاشات عملاقة تراقب حبة الخردل بالكوكب.. علمت أخيرًا من أين يبث قمر أندروميدا ومن أين يتحدث الكلاب ملقين فضلاتهم بآذان الشعب..

تتأمل المكان وكأنها تحاول تخزين كل ذرة فيه بذاكرتها.. استوقفها همس بلاس من خلف أذنها:

- أعجبك المكان؟ .

اضطربت في البداية.. التفتت إليه ثم ابتسمت ساخرة:

- جدًا .

- كيف تسللتِ إلى هنا؟ .

- تسللت؟ .. عيب عليك .

- آه آسف.. أقصد كيف دخلتِ؟ ..

- من نفس البوابة التي دخلت منها..

ابتعد عنها خطوتين، شدّ عوده يفرك كفيه..

- تعلمين أنه من الممنوع التجول أو الاقتراب من مكان البوابة؟

- أنا الوحيدة هنا التي يلين لها الممنوع..

تعالت ضحكاته، اقترب منها من جديد ثم همس لها:

- حبيبة قلب بيوس، تعلمين .. أنا لا أثق بك .

بادلته الضحكات:

- أتأكل قلبك الغيرة منه إلى هذه الدرجة..

- أنا لا أغار منه.. أنا أمقت حماقته، فبعد هذا كله يسلم ذقنه للكِ .

نهاية بائسة أليس كذلك؟ .

- تريد الكوكب .

- احذري وماذا؟ ..

انتبهت إليه..

- وأريدك .

انفجرت ضاحكة، احتدت نظرتها.. يبدو أن لا أجهزة تعقب أو مراقبة بهذه الغرفة.. بلاس يتحدث وكأن لا أحدًا غيره على الكوكب..

- لو علم بيوس لقتلك..

- لن يعلم ..

- وكيف لك أن تثق إلى هذا الحد ..

- لدي ما قد يجعلك تذبحينه وتشربين من دمه..

عادت ابتسامة السخرية تتربع على عرش شفتيها..

- هات ما عندك .

- بيوس قتل والاس .

تبدلت معالمها وكأنها تسمع هذه العبارة للمرة الأولى، تعلم أن بلاس شريك بيوس بهذه الجريمة ولكنه الآن يرمي عليه لتساعده بهدفه.. رغمًا عنها سقطت دموعها، حدثها كفحيح الأفاعي:

- لا يا جميلة.. عينان كعينيك لم تخلق إلا للضحك..

مدّ أنامله فانتأت ، ابتسامة المنتصر..

- ساعديني وانتقمي لنفسك ..

تأملته بغيظ، لا تريد إظهار أي ردة فعل بالرفض أو الإيجاب.. بلاس لا يجرؤ على فتح ما دار مع بيوس فلو علم بذلك لقتله ..

يعلم جيدًا أن الصالح لها ألا تتفوه هي الأخرى بأي حديث، كل ما أجابت به حينها..

- افتح لي البوابة أريد الخروج..

فعل ذلك وهو على ثقة بأنها ستوافق في النهاية، أرادت سيرين دراسة الأمر برمته لاستغلاله.. بلاس حفر قبره إلى جانب قبر بيوس.. ستعمل بمشقة لتصل إلى هذه اللحظة، أن تراهما غارقين في دمائهما بيد هذا الشعب.

طريقٌ إليه نُساق، ولا سبيل للعودة.. ولا خيار سوى المسير ..

***

الجميع هنا لوضع نقاط البداية.. الجميع هنا لصنع النهاية.. سبستيان وتيا، نضال ويوجين ويُليان.. حتى جهاد الذي أرسل إليه سبستيان للمجيء..

بدأ نضال بالحديث:

- الأمر لا يبدو سهلًا كما كنت أظن.. تعلمون ما الذي سعى بيوس لقتله في هذا الشعب لنصل إلى ما نحن إليه؟.. سعى لقتل الكرامة، أن يؤلمك قلبك أكثر مما تؤلمك أمعاؤك فتأبى أن يُمس كبرياؤك بسوء وإن مِتّ جوعًا..

وللأسف هم يصدقون ما يُقال لرغبتهم في التصديق.. أكثر الأصوات إزعاجًا لهم هو صوت الجوع.. والتغني بالأمان على الرغم من أنه لا أمان.. الأمان الوحيد الصادق هنا هو أمانه ورجاله غير ذلك تحت قدميه..

لقد فكرت كثيرًا.. نحن قلة، قلة لا تُذكر مقارنة برجاله.. المجازفة والخروج الآن ليسوا لصالحنا إنما انتحار..

أجاب يُوجين غاضبًا:

- إذن لماذا جمعتنا.. لتطلب مِنّا إكمال النوم في العسل ..

ابتسم نضال ثم استطرد:

- لا.. بل لصنعه لكن لا ضرورة لتذوقه .

- ماذا تقصد؟ .

غمزه حينها يُليان ليهدأ، يعلم كونه حاد الطباع يتشوق لنزع رقابهم..

- سنحاول إنعاش الكرامة ولا بأس إن لم نشهد عودتها للحياة، المهم في النهاية أن تعود..

أريد ضرب بيوس في عقر بيته.. أريد الوصول إلى ما يكشف ستره ويُعيد غليان البركان الخامد..

سأله سبستيان:

- وكيف ذلك؟ .

- بيوس قطع كل وسائل التواصل والبث بالكوكب عدا وسائل بثه، حتى يمكنه التحكم فيما يرى ويسمعه شعوب أندروميدا وبالتالي تصديقه، علينا الوصول إلى مكان البث وإخبار هؤلاء من القاتل الحقيقي، من سرق طعامهم وانتهك عرضهم وقتل أولادهم..

- ومن أين يمكننا الوصول إلى إثباتات لذلك؟ .

- سيرين .

فهم حينها مقصده.. عليه إرسال جهاد برسالة جديدة، أكمل نضال:

- القادم لن يكون سهلًا، ولا أعلم نهايته بالنسبة لنا كيف ستكون.. لكني على علم كفاية بأنه سيصبح له صدى بين هؤلاء الموتى..

تذكروا دائمًا، ليس من الضرورة تذوق العسل.. لكن علينا صنعه .

***

الفصل السابع

بواحد من فنادق العاصمة، طلب عبدالله من موظف الاستقبال حجز غرفة باثنين من الأسرة.. أخذ المفتاح ثم صعد إليها وما أن همّ بفتح الباب حتى توقف لحظة ثم التفت إلى سارة:

- أردت حجز غرفتين لكن خشيت أن نكون مراقبين فيتسلل أحدهم إلى غرفتك..

ابتسمت..

- أعرف..

فتح الباب ودخل إلى الغرفة، ليست واسعة إلى حد كبير بها سريرين أطفال متقاربين وأريكة صغيرة تطل على تلفاز معلق ومرحاض ملحق..

- هل بالخِزانة ركن للملاءات؟.

- أظن..

فتح الخِزانة يبحث عن واحدة، التقطها ثم قام بفردها..

- ماذا ستفعل؟.

- الآن نحن مضطرين للمبيت بسريرين متقاربين إلى الحد الذي يكشف كل منا للآخر.. الوضع لا يسمح بأن أنام على الأريكة أو الأرض.. سنفصل بيننا بهذه.. تنامين أنت بالناحية المواجهة لباب المرحاض و الخِزانة فتستطيعين التحرك براحة أما أنا إن تحركت سأنادي عليك..

- لم كل هذا عبدالله؟..

ابتسم، بدا عليه التوتر من سؤالها ثم أجاب ضاحكًا:

- لأنني عبدالله .

ساعدته على الفصل بينهما.. بدلت ملابسها بملابس النوم، استلقت على سريرها، بينما كل منهما لا يرى الآخر حدثته بسؤال ليس له بوقتهما هذا محل..

- عبدالله..

- ماذا؟.

- جارتك.. هل التقيتها؟.

- أي جارة؟

- إلى هذا الحد هم كُثر

- تقصدين الجارة اليافعة؟.

احتد صوتها:

- عبدالله لا تحاول استفزازي

انفجر ضاحكًا ثُم اضطرب حينما تذكَّر موقفها الأخير، صمت ولم يجب فلا يعلم أعليه أن يجيبها أم لا..

- صمتك علامة.. ماذا حدث؟.

- لا شيء .

جوابه أثار بنفسها الضيق، تعلم أنه قد حدث شيء ولا يريد إخبارها به.. رأت مرادها منه منذ الوهلة الأولى.. لم ترغب بالضغط عليه أكثر ولكن الوساوس .

خيَّم الصمت، يعلم بأنها كأي فتاة وإن اختلفت ثقافتها.. ربما تظن كونه دخل معها بعلاقة أو أنجبت منه طفلين..

- سارة..

انتبهت له..

- تعلمين أني مسلم أليس كذلك؟.

لم تبرز أي ردة فعل.. أكمل حينها:

- قد أكون غير متدين إلى هذا الحد، لكن بعض الأمور من الصعب أن أسمح لنفسي بالسقوط فيها، تفهمين مقصدي؟.

- أظن ذلك .

- غادرت بلادي لأجل المبدأ وكان متاحًا لي خسارته، لن أتخلى عنه وأنا خارجها لأجل الأدنى.

تمدد على ظهره وقد أسند رأسه إلى ذراعيه المثنيان خلف رقبته، تحدث وكأنه يهمس إلى نفسه:

من غرق إلى غرق ولا انتشال، ومن موجة إلى أخرى ولا استقرار.. وُلدت بمتاهة كالغريب وهربت منها إلى أخرى غريب وفي كل الحالات لا راحة..

***

بعد أن غادر الجميع منزل سبستيان، اجتمع نضال بجهاد في حضرته يحاولون التفكير بما

يجب إخبار سيرين به.. خاصةً وقد أرسلت إليهم برسالة مع جهاد توحي بأنها تدرس كل شيء وفقط تنتظر أمر..

التفت نضال إلى جهاد:

- تعلم من أنا؟.

- أي شخص سوى والاس.. ولكن الأمر برمته لا يهم طالما نحن على نفس الهدف .

تدخل حينها سبستيان ثُم بدأ برواية القصة على مسامع جهاد، في البداية لم يستطع استيعاب الأمر فهو أشبه بالخيال، لديه معلومة عن أن العلماء عملوا على تجارب في نطاق التنقل في نفس الزمكان، لكن أن يكون هناك عوالم أخرى موازية فهذا في نظره أساطير طالما ليس له إسقاط.. والآن قد رأى انعكاس الإسقاط أمام عينيه..

- جهاد.. مَن سماك هذا الاسم؟.

- جَدي..

- غريب .

- اسمي؟.. أعلم، كان مُغرمًا بدراسة اللغات الغريبة.. إنه ينتمي لواحدة يُقال أنها ذات يوم تداولت على هذا الكوكب..

- العربية؟ .

ظهرت قسمات التعجب على جهاد، سأله:

- كيف عرفت؟..

- إنها لغتي الأم، الجهاد اسم لمقاومة الباطل حتى يحكم الحق بشتى أنواعه.. أعلم أن الإنجليزية هي اللغة التي تتحدثون بها..

- اندثرت معظم اللغات عداها..

- الكوكب خصائصه تشبه كوكبي، حتى اللغات.. وكأنه الأرض من مستقبل بعيد جدًا، لولا أنني أدرك أن هذا البعد السادس لقلت هذا كوكبي وقد غيروا اسمه .

قطع سبستيان حديثهما من جديد موجهًا كلامه لجهاد:

- رويت عليك قصته لأني أعلم أن عندك خبر بمقتل والاس، خشيت أن تتساءل أمام البقية..

هذا سرنا يا جهاد.. نضال والاس ولا تناديه بغير ذلك اتفقنا؟..

وجوده بيننا الآن سيشتت بيوس عند تنفيذ خطتنا، كما أن لدى والاس ما يتحدث به إلى

أندروميدا ولا يجب على غيره فعل هذا.

بدا عليه الاستيعاب، عاد نضال يوجه حديثه لجهاد:

- هذه رسالة قمت بتحضيرها مع سبستيان، كما فعلت والدتك في المرة الفائتة فلتفعلها هذه المرة وتوصلها إلى سيرين..

- سأفعل .

- احذر.. لن أوصيك .

ربط على كتفه مثبتًا إياه وما أن غادر حتى وجه حديثه إلى سبستيان:

- من الجيد أن بداية الرسالة تحويك، ستكون صدمة لها أن ترى شبيه والاس فهي لا تعرف بأمري حتى الآن..

ابتسم حينها مجيبًا:

- أدرك ذلك.. أتمنى أن تتماسك .

***

وكأن الأقدار تُسيّر الأمور لتصل إلى نهاية عليها أن تتحقق، ما بين عرض بلاس ورسالة سبستيان عدة أيام.. ومن قبلها قضت من بعد الشرارة الوقت في دراسة عدوها ساكنة..

ما أن هَمَّت آليس بالمرور من البوابة حتى أوقفها الحارس الآلي ثم بدأ بتفتيشها.. إنها المرة الأولى مذ خطبة سيرين التي يحدث فيها ذلك، يفتش كل قطعة تحملها بحرص شديد ويُدخل جهاز الاستشعار بين الثنايا.. حتى وصل إلى المنطقة التي تحمل الرسالة أعلن الجهاز وجود جسم غريب، ارتفعت دقات قلبها، إن كُشف الأمر ستنقلب الدنيا، سيحرق بيوس كل شيء في طريقه، سيقتل ابنها امامها..

- آليس .

التفت الحارس، حينها أجابت بصوت الناجي من الغرق:

- سيدة سيرين .

اقتربت سيرين من الحارس تأنبه في غضب:

- ما الذي تفعله؟.. كيف تجرؤ على تفتيش خادمتي؟.

أجاب الآلي:

- آسف.. لم أستطع التعرف عليها..

- أين بطاقة تعريفك آليس؟ ..

أخرجتها فناولتها إياها.. وضعتها بوجهه، صاحت فيه بحزم:

- هذه..

لماذا لم تقم بطلبها؟، سآمر سيدك بتفكيكك قطعة قطعة وتفجير رأسك..

آلي غبي ..

تركته غاضبة تسير وخلفها خادمتها، وما أن وصلا حيث غرفتها حتى تنفسا الصعداء.. ضحكت سيرين:

- كاد يكشف أمرنا..

- جئتِ في الوقت المناسب تمامًا..

- أنت تحملين ما يجعل عيني في وسط رأسي، المهم اعطني الرسالة..

ناولتها الجهاز، فتحته ليظهر سبستيان مجسمًا يحدثها..

سيرين يا صغيرة.. كيف حالك هناك.. أنا أيضًا اشتقت لكِ، أشعر بكل ما تمرين به.. والاس بالتأكيد فخور بكِ

ابتسمت، امتلأت عينها بالدموع وكأنها غير مصدقة أنها تحمل رسالة منه بعد كل ما مرت به..

*أردت أن أعرفك بأحدهم، لكن من فضلك تماسكي لتفهمي *

نادى نضال ليظهر إلى جواره برسالته.. صرخت حينها:

- والاس؟.. كيف .

سيرين.. هذا نضال، أتى بعد اعتقال والاس بطريقة قد لا تصدقينها، يشبهه في كل شيء حتى تفكيره، ستروي أم جهاد لك قصته حتى لا أطيل عليك.. اسمعي منه ونفذي ما يطلبه

تدخل حينها نضال:

كيف حالك سيرين؟

يحمل نفس الصوت، له نفس النظرة.. كيف له ألا يكون والاس؟.. قلبها يقفز من بين جنبيها كصغير جائع يرى الطعام ويستغيث، أتراه من جديد بعد أن حُرمت رؤياه؟..

*أنا نضال اسمي نضال.. لكني بين الجميع والاس، لا أحد يعلم بموته سوى القليل ولا يجب أن يعرف أحدًا، القادم حساس جدًا وقد يحدث فارقًا إن نجح.. أريد الوصول إلى بث الكوكب، كما أريد منك جمع كل المعلومات والتسجيلات والمشاهد التي تثبت أن بيوس

من ارتكب كل هذا.. القمر يسجل كل حركة على الكوكب أنا على ثقة بأن هناك ما يعري ستره أمام أندروميدا.. أرسلي لي إن توصلتِ لشيء، كلنا هنا في انتظارك.. كوني حذرة*..

انتهت الرسالة.. رفعت وجهها بعينين مليئتين بالدموع إلى آليس، سألتها بصوت مشروخ:

- من هذا؟، كيف له ألا يكون والاس؟

مسحت على شعرها مشفقة، انهارت على أعتاب رؤياه برغم إخبارها كونه ليس والاس.. فماذا إن كان والاس؟ .

جلست تروي على مسامعها قصته التي حدثها بها جهاد وتهدهدها كطفل لتهدأ.. وما أن انتهت من حكايتها حتى استأنفت:

- عليكِ أن تتماسكي فالقادم يحتاج كل قواكِ..

أومأت برأسها..

- أظن.. أظن أنني أعرف ما يجب عليَّ فعله .

هي تستغيث بقواها ألا تخذلها الآن.. وتحتمي من ضعفها الذي بدأ ينهش بأساساتها من جديد .

***

وقف يُليان على باب ذات الشعر الأحمر من جديد؛ وجهه مضيء.. متلهف للاطمئنان.. فتحت له..

- يُليان .

صرخت فيه بينما تنطق اسمه، الشوق يرقص على أوتار صوتها..

- تأخرت .

- لا بأس.. أنا الآن هنا..

اتجه بقدميه صوب الداخل، جلس على أحد الكراسي.. علَّق مقلتيه عليها وكأنه يَوَد لو خبأها داخلها فلا تضيع في طرفتها كما انتباهتها ..

- أين كنت كل هذا .

تبسم..

- أحاول..

- ومنذ متى وأنت لا تحاول .

- تختلف المحاولات يا صغيرة.

- أي محاولة هذه التي منعتك عَنَّا .

- سترينها في القريب..

- وأنت إلى جواري؟ .

اتسعت ابتسامته أكثر..

- وأنا إلى جوارِكِ .

أحبال الأمل رائعة، تمتد إليك وقت يأسك وفُقدان نفسك، لكن تُراها تنتشلك؟..

أم أنها هنا لتلتف حول رقبتك..

أظن أن الحالتين نجاة ..

***

ما أن لمحت سيرين بلاس يتجه ناحية منطقة البوابة حتى تبعته حذرة، وقفت إلى جواره.. رآها فابتسم ثم استطرد في ثقة:

- لا أظنكِ تحتاجين إلى التسلل خلفي اليوم .

أجابته حينها:

- يبدو عليك الذكاء .

فتح البوابة وقد عبراها للداخل، اجتازا السُلم وما أن وقفا مقابل بعضهما بين الشاشات حتى حدثته:

- ما الذي تريده؟ .

ابتسم ساخرًا:

- أنت متعبة .

- لا تتلاعب بي.. تعلم أني قادرة على محوك .

- لن تفعلي .

- لا تثق بي كثيرًا يا بلاس..

- أنا على يقين بمدى كُرهك لبيوس.. لا تتصنعي غير ذلك .

وقفت أمامه صامته ترمقه بنظرات حادة، لا تريد أن تظهر أمامه مضطربة.. فبلاس كالوحش البريِّ إن شمَّ رائحة القلق قد ينقض عليك .

- دعك من هذا الحديث وأخبرني بما لديك.

- أريد فتح الباب لثوار أندروميدا

- ماذا تقصد؟ .. وضح أكثر.

- سأسهل الأمر عليك، بيوس يعلم بوجود مدينة خفية على الكوكب تحوي الكثير من الثوار.. وأنا أعلم أنكِ تستطيعين الوصول إليهم..

- إن كان يعلم.. لمّ لم يحاول الوصول؟.

- ليس لدينا سِر التنقل ..

- كيف؟، إذن كيف لكم الوصول إلى هذا المدخل .

- إنه قديم.. من قبل حكم بيوس، كانت بداية للعلماء في الوصول إلى سر التنقل.. عِندما استولى على مقر القيادة أخذ مفتاحه ولا يعلم عنه سوى كلانا..

أقوم ببث البيانات من خلاله عندما يطلب مني ذلك .. ونتتبع كل ذرة على الكوكب كما ترين من خلال الشاشات، حيث القمر يُحلل كل شيء ثم يعطي إشارة للآليين بالتحرك.

ابتسمت ساخرة:

- أنتم تحكمون قبضتكم جيدًا..

- ماذا كنت تظنين؟.. هلاك بيوس يعني هلاكي ..

- حقًّا ..

أنت الآن تحاول حفر قبره.. ماذا تنتظر منهم وأنت مساعده؟، أن يُسَمُّوا عليك؟.

- بالطبع لا.. لن يخرجوا من هنا أحياءً .

ابتلعت غيظها.. حدثته بهدوء:

- ولما لا تقتله أنت وتستولي على مكانه وعليَّ كزوجة باختصار..

انفجر ضاحكًا..

- كنت أظنكِ أكثر ذكاءً، هل في مخيلتك أن بيوس يأمن مكري .. هو يخشى حتى الهواء الذي يسير من حوله.. لا أجلس معه إلا والمكان مزدحم بأجهزة الإنذار وحراسه بالقرب..

الشخص الوحيد الذي يترك نفسه معه ولا يراقبه ولا يخشى مكره هو أنتِ..

- حقًّا..

- نعم.. مغفل ويحبكِ .

وقفت صامتة تفكر في طلبه، علقت بعدها:

- وماذا إن كان طلبك هذا فَخًّا لي..

- للمرة الثانية حمقاء على التوالي.. ما كنت لأخبركِ بكل هذا .

على بيوس أن يموت دون أن أظهر في الصورة.. وبعدها سأتولى أنا الأمر .

البطل الذي قبض على العلماء المتسببين في مقتل القائد.. ما رأيك بهذا العنوان بعد مقتله..

ضحكت حتى كادت أنفاسها أن تتوقف..

- يعجبني ثقتك هذه .

لكن.. بلاس .

- ماذا؟.

- ألا تخشى أن أفتح للثوار المجال لقتلك أنت الآخر .

عاد للضحك من جديد..

- قلت لكِ حينها سأتولى الأمر.. أنا أضمن لنفسي النجاة من بين أيديهم .

- وكيف أضمن نفسي منك..

- أنا لي رغبة فيك، وطالما لي الرغبة لا تقلقي على نفسك..

أكمل وصلات ضحكه.. تأملته مبتسمة، وكأنها هي الأخرى تعلم ما عليها فعله..

- أريد مفتاح البوابة لأستطيع لقاءك هنا..

أخرج لها واحدًا . مُعَلِقًا:

- كانوا عشرة علماء، استولينا على العشرة مفاتيح خاصتهم؛ مات أكثرهم والحيُّ منهم هارب.. معي واحد وبيوس آخر وأنتِ الثالث..

لا تبرزيه..

أومأت برأسها.. تربعت على شفتيها ابتسامة مبهمة..

- سأخرج من هنا، وسألتقيك إن حدث جديد .

- أنا أنتظر .

***

أرسلت سيرين جهادًا برسالة جديدة تحدّثه فيها بما دار، فتح سبستيان الرسالة أمام نضال

وكانت المرة الأولى التي يرى بها سيرين.. استمع صامتًا إلى ما تقول، حدّثته فيها بما لديها.. تخوفاتها وما عليها فعله.. انتهت الرسالة فالتفت إليه..

- ماذا هناك؟..

- ماذا؟.

- عيناك حزينتان، أقالت سيرين ما ضايقك؟..

- لا ..

أدار وجهه شاردًا، ثُم تحدث مُعلقًا:

- وكأنها زوجتي .. تُشبهها تمام الشبه، لولا البعدين لقلت أنها انتقلت خلفي .

- غريب ..

- ما هو الغريب؟ ..

- أنت تُشبه والاس تمام الشبه، وهي تشبه زوجتك تمام الشبه.. يعني ذلك أن احتمالية وجود أشباه لنا متماثلين في عالمك كبيرة ..

- أظن ذلك ..

- الأمر يحتاج إلى دراسة..

لا بأس لو تزوجت سيرين بعد انتهائنا من هذا..

انفجر ضاحكًا يغمز نضال الذي تبدل عبسه إلى ابتسامة.. ثُم أكمل:

- المهم دعنا من هذا..

ما الذي علينا فعله الآن؟ .

- كما أخبرتك، سنخطط للوصول إلى مقر البث .. هذا أهم من بيوس نفسه..

لو قُتل بيوس لحل بلاس.. وحينها سننتقل من ملعون إلى ألعن، نُريد تنظيف القاعدة كاملة..

- تدرك ما يحيرني؟.

لماذا لم يطلب منها قتله.. بدلًا من كل هذا .

- أنتم من تقلقوه من بعد بيوس، يريد ضرب عصفورين بحجر واحد، وكما سمعت منها يريدها معه في القادم.. عندما تعمي الشهوات من مثلهم .

فتح نضال جهازه الصغير ثم بدأ بتسجيل رسالة جديدة.. هذه المرة قد لان صوته، وكأنه

يرسلها إلى زوجته وليست امرأة غريبة لا يعرفها:

* كيف حالك.. سمعت كل ما قلتيه وأدرك كم الضغوطات التي تحملينها الآن، امرأة واحدة بجحر الأفاعي.. لا بأس كلنا إلى جوارك.. أحتاج منك الوصول إلى التسجيلات وإرسالها.. أو على الأقل فتح المجال للوصول إليها*

التفت نضال إلى سبستيان لإضافة البيانات:

سيرين تسجيلات بيوس كلها بمفتاح A234، حاولي سحبها على جهاز سأرسله لك.. أعلم أن المفاتيح هناك كثيرة ولا وقت لديك لفتحها جميعًا فيكشف أمرك.. أنا واحد من العلماء الذين عملت على هذا المشروع والوحيد الناجي منهم.. ننتظرك..

أغلق سبستيان المسجل ثُم سلمه لجهاد مؤكدًا عليه بأن يكون حذرًا..

***

استفاق عبدالله على صوت هاتفه يحمل رسالة من رقم مجهول، لا يعرف من أرسلها ولا لِمَ أرسلها؟ ..

أنتما مراقبين..

جلس منتبهًا في سريره تلعب الوساوس برأسه، في هذا الحين خرجت سارة من المرحاض بعد أن تحممت وبدلت ملابسها حتى تتجهز للسفر.. نادته:

- عبدالله، هل لي بسحب الملاءة؟.

انتبه مجيبًا بصوت مضطرب:

- حسنًا..

شعرت بتغير صوته.. أزالتها مهرولة، جلست مقابلًا له..

- ماذا هناك؟.

التفت لها بعينين شاردتين..

- لا أعرف.. هناك رسالة غريبة جاءتني على الهاتف.

- رسالة ماذا؟.

ناولها الهاتف وما أن قرأتها حتى قفزت إلى ذهنها هي الأخرى عدة أفكار..

- تعرف من المرسل؟

- لا.

- إما أن يكون شخص ظريف يمزح معنا فأرسلها بشكل عشوائي.. أو أحدهم يعلم وجهتنا

ويعرف بالفعل أننا مراقبين ويريد تحذيرنا..

- وقد يكون رسالة من هؤلاء لتخويفنا ..

- هذا احتمال وارد..

لكن.. من أين لهم بالمعلومات عن الكتاب، هذا الأمر يحيرني.. ومن أين لهم رقمك أيضًا .

عاد للشرود من جديد..

- شيء من اثنين..

إما أنه أحد من زرناهم شك بالأمر، أو أن القصة خرجت من بينهم لطرف ثالث يهمه الأمر ويبحث خلفه.

- الأمر يزداد تعقيدًا .

علينا الخروج من هنا متخفيين..

- اسمعي، أنا سأذهب لدفع الحساب.. وأنت أخرجي بالكتاب من الباب الخلفي للفندق ولا تغادري حتى آتي إليك.

أومأت برأسها، حملت الحقيبة التي تحوي الكتاب وحقيبة الظهر خاصتها وخاصة عبدالله، أما هو فاتجه لموظف الاستقبال لدفع المبلغ المتبقي ثُمَّ خرج من الباب فارغًا وكأنه سيعود، لمح شخصين غريبين معلقين ناظريهما عليه.. لم يتحركا وكأنهما متوقعان عودته.

خرج من باب الفندق ففوجئ بواحد منهما يتبعه، مَرَّ من شارع جانبي وتستر خلف حائط وما أن مَرَّ الأخير خلفه حتى ظهر عبدالله بلوح خشبي..ضربه فوق رأسه فسقط على الأرض فاقدًا للوعي..

عدا سريعًا حتى وصل للباب الخلفي للفندق.. وما أن لمح سارة تترقبه حتى أسرع إليها حاملًا عنها الحقائب.. أوقف سيارة أجرة قفزا داخلها..

- من فضلك أسرع ..

التفتت إليه سارة تلتقط أنفاسها وتحدثه بصوت متقطع:

- ماذا هناك يا عبدالله .

- أحدهم كان يتبعني..

- من هذا؟..

- أظن من أرسل الرسالة محذرًا لم يكن يتلاعب، دائرة الخطر تتسع..

- اهدأ.. اقتربنا لحل الأمر، هذا المفتاح الأخير.

أدار وجهه يتأمل الطريق من نافذة السيارة، تحدث بشيء من الجدية:

- سنتجه إلى اسكتلندا الآن.

***

بالمشفى؛ ترى شبح الموت جائعًا يجول بالطرقات باحثًا عن جسد يفتر نبضه ينقض عليه ويتغذى على ما تبقى..

بالمشفى؛ ترى الحياة امرأة عجوز، يغزو الشيب شعر رأسها الطويل.. تتأرجح أسنانها حتى تتساقط.. فتسمع صوت الارتطام يدوي؛ يشق هدوءً كالموات.

بالمشفى ترى عويل المفارقين يحتضن الجدران، وكأنها اعتادت قسوة المشاهد باردة تتقاذف الصراخ دون تأثر..

استفاق والتر من غيبوبته، لازال جسده ضعيفًا متصلًا بالأجهزة.. حاولت الشرطة إخفاء الأمر حِرصًا على سلامته لكن على ما يبدو أن هناك متابعًا جيدًا وصله الخبر..

فتح والتر عينيه ليجد أحدهم مرتديًا زي الطبيب يبتسم إليه في خبث..

- كيف حالك سيد والتر؟، لا تعرفني أليس كذلك؟..

أجابه والتر بضعفه والصمت، شعر بأنه ليس طبيبًا .. فأكمل الرجل بصوت هامس:

- نعم.. نعم، هو هذا الذي يدور في خلدك.. أنا لست طبيبًا.

سأله حينها بصوت ضعيف:

- مَن أنت؟..

- أنا رجلٌ لطيف أبحث عن معلومات تخص الكتاب..

- أي كتاب؟.

ابتسم ابتسامة خبيثة..

- أشم رائحة الخداع على بُعد أميال، لا تتلاعب بي .

- لا أعرف شيئًا..

- سيد والتر، أتيت إليك بنفسي ولم أرسل أحدًا من رجالي.. احترم هذا يا رجل ..

الأغبياء كانوا خلف الفتاة والشاب، لكنهم استطاعوا الإفلات، أريد أن أعرف وجهتهما..

عاد والتر للصمت، حاول بضعفه أن يصل إلى جرس الإنذار.. لمحه الغريب..

- تؤ تؤ تؤ إجابة خاطئة..

فصل جرس الإنذار.

- سيد والتر أنا آسف لك على ما سأفعل ولكنك الآن عرفت الكثير ، وأظنك قد تيقنت ممن حاولوا قتلك..

نومًا هنيئًا..

حقن المحلول إلى جواره بمادة سامة، ثُم تَركه يَموت رويدًا.. تستسلم أجفانه للإنسدال الأبدي.. ثُمَّ ترك الغرفة .

***

جلست سيرين على منضدة الطعام مقابلًا لبيوس.. شاردة فقد استمعت إلى الرسالة الأخيرة من سبستيان ونضال، تفكر فيما عليها فعله..

- ما بك؟.

ابتسمت له، حدثته:

- بخير.. لا تقلق عليّ.

- إذن فيما أنت شاردة؟.

- ولا أي شيء.. لم أنم جيدًا ليلة أمس وجسدي متعب.

- تريدين العودة إلى غرفتك؟..

- لا.. ننتهي من طعامنا وسوف أتمشى قليلًا..

بعد أن انتهت من تناول طعامها معه هبطت إلى الطابق الأدنى تتجول فيه، بلاس لن يحضر هذه الساعة.. راحته التي يتناول فيها طعامه، فتحت البوابة ثُم ولجت للداخل تبحث عن المفتاح الذي أخبرها عنه سبستيان..

- A234 أين يكون يا ترى؟ .. أكان يقصد هذا ..

اقتربت من لوحة مفاتيح أثيرية تحوي عدة أرقام وحروف ثُم بدأت بضرب المفتاح، ارتفعت شاشة أثيرية قامت بعرض جرائم الكوكب منذ بداية حكم بيوس..

قتل..

تشريد..

تصفية و اعتقال..

تتأمل كل لحظة، كيف مارس إجرامه بهذه البشاعة.. كيف أقنعهم أن المجني عليه قاتلهم وأن الجاني ما هو سوى منقذ ..

- والاس ..

همست باسمه فقد أتى دور مشهده.. تأملت عجزه بين أيديهم، انكسارة عينيه..

- بماذا كنت تشعر وقتها يا حبيبي ..

ارتعشت أناملها.. لم تتحمل إكمال المشهد، أوقفته وقد اجهشت في البكاء.. بدأت بنسخ قاعدة البيانات بأكملها على جهاز سبستيان ودموعها لم تتوقف لحظة.. لا وقت للضعف.

مسحت عبراتها، تنهدت.. هَمَّت بفتح البوابة للعودة لتجد بلاس بوجهها .. قبل أن يفتح أي مجال للاستفهام حدثته بمكر:

- لك حظٌ من حديثي ..

ابتسم:

- كنت تنتظريني إذن .

- فكرت جيدًا.. أنت مساعد بيوس، نظم إخلاء الموقع وأعلمني باليوم والساعة..

وإياك أن تغادر منزلك يومها ..

اتسعت ابتسامته أكثر:

- أخشى أن أقع في حبك كما فعل الأحمق ..

بادلته الابتسام.. حدثته في ثقة:

- ستفعل .

أكملت فتح البوابة معطية إياه ظهرها.. وما أن أُغلقت خلفها حتى همست تسب *يا أولاد الكلب*..

***

الفصل الثامن

أسند يوجين رأسه إلى ركبة أمه، مسحت على شعره ثم قبلت جبهته، أسدل جفنيه يقتبس من حنانها حتى يرتوي، أراد لو لا يغادرها أبدًا ..

حدثته بينما تمرر أصابعها في شعره:

- تذكر عِندما كنت طفلًا.. كنت عنيدًا إلى درجة يصعب على أم السيطرة عليها ..

كُل يا يوجين..

لا..

حبيبي كُل..

قُلت لا ..

ثُم تشوط الطعام بقدمك الصغيرة، أغضب منك فتقترب مني تمتص غضبي بقُبلة رقيقة من فم دقيق وشفتين ناعمتين..

ابتسم، أخفى وجهه فيها..

- لا زلت عنيدًا، لكنك الآن رجلًا أفخر كونه ابن لي..

أحبك يا صغيري.. تشعر بذلك؟...

سحب كفها من على رأسه.. قبلها في باطنه ثم وضعه على قلبه.. همس بعد حيّز من الصمت:

- وأنا أحبك أكثر من نفسي.

عادت تُقبل رأسه؛ ثُم غرق ثنتيهما في الصمت...

كُل منهما في عالمٍ يخشى فيه فقدان الآخر .

***

سَلمت آليس الجهاز إلى جهاد فور عودتها للمنزل، أمسكه بين كفيه يقلب فيه وكأنه يعلم أنه يحوي البداية.. رفع وجهه إليها ليجد عيناها تبرقان بالدموع..

- ماذا هناك؟ .

هزت رأسها مجيبة بالنفي..

- إذن ما بال عينيك لهما رأي آخر؟ .

وبعد عبارته هذه ضعفت فتركت المجال لدموعها تسقط..

- حدثيني يا أمي ماذا هناك؟.

- أخشى عليك .

- ألم يكن اتفاقنا من البداية أن نصمد حتى لا نشبه كلاب بيوس؟ .

- ولكني أم .

جذبها إلى ذراعيه..

- أعلم يا حبيبتي ولكنا اخترنا طريقنا.. علينا إكماله، لا تخافي عليّ أنا بعيد عن كل هذا .

تحاول تصديق كلماته لتهدأ.. تبحث عن أمل حتى وإن كاذبًا أن كل الأمور ستصير بخير.

***

الوجهة: بحيرة لوخ لوموند بريف اسكتلندا..

تشتهر هذه البحيرة بمظهر خلاب.. ما أن وصل سارة وعبدالله إلى هناك وقد خطف لبهما المنظر، حدثها حينها:

- لولا ما جئنا إليه لقلت لك نعيش هنا .

- بالريف؟ .

- نعم.. الوضع هنا أهدأ من صخب العاصمة..

ابتسمت إليه، ثُم عادت لتأمل الخارطة بجهازها النقال..

- تعلم أن العنوان لواحد من الفنادق القريبة من البحيرة؟..

ظننته لمنزل.. فندق Yuki Yo يوكي يو..

- اسم ياباني ..

- نعم.. علينا حجز غرفة هناك، ما يحيرني أي العاملين فيه علينا مقابلته.

- سنعرف هناك .

واصلا المسير حتى وصلا إلى الفندق المقصود.. تأملاه من الخارج، فندق ريفي بسيط عبارة عن ثلاثة طوابق.. دخلا من الباب ليجدا شاب يافع يقف في الاستقبال، رحب بهما ثُم أعطاهما ورقتين لكتابة بياناتهما واستلم منهما مبلغ الحجز..

ابتسم إليه عبدالله يسأله:

- غريب اسم الفندق، هل صاحبه اسكتلندي؟..

- لا.. إن السيد زين ياباني من أم اسكتلندية.. يحمل جنسية مزدوجة، الفندق على اسم

والده الذي غادر اليابان في أواخر الخمسينات وعاش هُنا وقد تزوج امرأة ريفية من سكان لوخ لوموند وأنجبا وريث الفندق..

اتسعت ابتسامته أكثر ثُم علَّق على لباقة الشاب:

- أنت تعرف تاريخه..

ثُم تأمل ما حوله واستطرد:

- لا عجب أنك موظف الاستقبال الوحيد هنا..

هل كُل العاملين هنا شباب؟.

- نعم .

التفت إلى سارة موجهًا كلامه للشاب:

- وكم عُمر السيد زين؟..

- انتقل والده إلى هنا بالعام 1958م وتزوج بالعام 1959م.. ثم أنجبا السيد بالعام 1960م.

- مقارب من الستين.. إذن هو الوحيد العجوز هنا .

أومأ الشاب برأسه.. سألته سارة:

- هل هو موجود الآن؟..

- هو بغرفته.. هذا وقت قيلولته، وقت غروب الشمس يتركها لتأمله بالقرب من البحيرة..

- شُكرًا لك..

- على الرحب .

استلما المفتاح منه وفي هذه الأثناء قطع المشهد فتاة جميلة تجمع ما بين الملامح الأسيوية والإنجليزية.. متوسطة الطول لها عينين واسعتين تشبهان خاصة شخصيات المانجا اليابانية، لونهما مائلًا لعسل النحل.. وشعر بني طويل ناعم وبشرة خمرية متشربة بعض الحُمرة، تجلت قدرة الله بها في الجمع بين عرقين مختلفين..

وقفت أمام موظف الاستقبال تعطيه مفتاح غرفتها فلمعت عيناه، حدثته بصوت يميل للطف:

- أبي لم يستيقظ بعد؟.

- نعم آنسة مارلي..

- حسنًا إن استيقظ فأخبره أني أخذت السيارة لشراء بعض الحاجيات من المقاطعة

بالقرب.

غمزت له ثم ابتسمت كاشفة عن أسنان تشبه حبات اللبان ناصعة البياض، جذبت ناظري عبدالله وكأنه يفكر كيف لها أن تجمع الجمال من عرقين .

- ابنة السيد زين؟.

أومأ الشاب برأسه.. لاحظت سارة فحدثته في حِدة:

- عبدالله، أنا متعبة .

وصلا إلى الأعلى، دخل إلى الغرفة أولًا وهي من خلفه فأغلقت الباب بعنف فالتفت في فزع:

- سارة ماذا، أجننت؟ .

وقفت وقد شبكت ذراعيها وبدا بحركات مقلتيها وفكيها الوعيد.. لا يعلم لماذا شعر بالخوف حينها من هذه الوضعية.. تشبه الهدوء المريب لما قبل العاصفة، فالتفت سريعًا هاربًا منها يفتح الحقائب..

اقتربت منه في غضب لدرجة أنه كان يسمع ضربة قدميها بالأرض..

- سارة ماذا هناك .. انت تفقديني تركيزي بهذه الحركات .

- حركات ماذا ..

- ألا ترين نفسك؟.. أفعلت ما ضايقك؟.

أجابت بكبرياء:

- لا لم تفعل..

- إن كنت لم أفعل.. لماذا تتصرفين بهذه الطريقة إذن؟ .

لم تجبه فلم يكترث، أكمل إخراج الملابس من الحقيبة فجذبت من بين كفيه إحداها وقذفت بها على السرير في غضب ، التفت إليها بتعجب ثم انتشلها بعنف.. تركته كطفل غاضب وجلست على أريكة بعيدة عنه، لحق بها.. جلس إلى جوارها بمسافة:

- ماذا هناك؟.

- لا شيء.

- سارة أنا متعب من السفر، من فضلك إن حدث ما أغضبك وضحي.

- لم يحدث شيء.

- حسنًا..

وكأنها بركان يغلي وانفجر، صرخت فيه:

- حسنًا؟.. أهذا ما استطعت قوله .

- سألتك وقلت لم يحدث شيء .

- إن لم يحدث لماذا أفعل هذا معك؟.. مجنونة مثلًا؟ .

- بعيدًا عن كونك مجنونة لأن هذا شيء مفروغ منه.. أنت لم توضحي سببًا واحدًا حتى الآن..

نظرت إليه في غضب، تذكر هذه النظرة فانفجر ضاحكًا:

- لحظة لحظة.. أتذكر هذه الطريقة .. هذه نفس نظرتك لي أيام الجارة .

ضربته بالوسادة في وجهه..

- اهدأي.. ما هذا؟، أنا لم أفعل شيئًا.. نحن لم نتحدث مع أي فتاة..

تبدلت نظرتها لأخرى، نظرت إليه بنصف عين وكأنها تقول ساخرة *يا مسكين .. ظلمتك*.. على الفور تذكر الفتاة صاحبة العرق المختلط..

- تقصدين مارلي؟ .

أجابته من تحت أسنانها:

- حفظت اسمها بهذه السرعة..

- لا فقط الاسم جميل.

- حسنًا سأذهب لجلب حقيبتي والعودة لإنجلترا.. لتنادي مارلي ستساعدك جيدًا.

ضرب ناصيته مستسلمًا ثم همس لنفسه:

- النساء هن النساء ولو من المريخ .

- كفاك تمتمة .

- سارة شرودي فيها تعجبًا من كون فتاة تجمع عرقين شاسعين في الفرق لأنها المرة الأولى التي أرى فيها شخص يجمعهما بهذه الصورة.. وليس لأني سأتزوجها صباحًا.

- جميلة أليس كذلك؟.

شرد لثانيتين ثم أجاب بملامح جادة:

- جدًا.

عادت لضربه بالوسادة فلم يستطع التماسك.. عاد للضحك بشكل هستيري، علق عليها:

- من السهل التلاعب بمشاعرك.. أنت لقطة.

- غبي .

- حمقاء..

ناما بعد شجار وسفر طويل، هو على الأريكة بعيدًا وهي على السرير.. حَل المساء فاستيقظ عبدالله.. طلَّ على سارة التي نامت بملابس السفر من التعب ليجدها غارقة في نوم عميق، ارتدى سترته ونزل للأسفل، التقى موظف الاستقبال من جديد يسأله عن صاحب الفندق..

- السيد زين الآن بالقرب من البحيرة .

- متى سيأتي؟.

- انتهى الغروب..

نظر في ساعته ثُم أكمل حديثه:

- بقي دقائق على دخوله من الباب..

وما أن أنهي كلماته حتى صاح لافتًا نظر عبدالله..

- ها هو قد أتى..

التفت إليه، عجوز ياباني تراه تظنه من عرق صافي فلا يحمل أيًّا من جينات الانجليز على الرغم من أن أمه انجليزيه على رواية موظف الاستقبال..

اقترب منه.. وقف السيد زين صامتًا وكأنه ينتظر منه الحديث..

- سيد زين هل تسمح لي بدقيقة؟ .

- مَن أنت؟.

- ستعرف كل شيء عِندما نتحدث .

أومأ برأسه، فتح له مكتبه وأجلسه فيه.. أخرج عبدالله هاتفه النقال ثم فتح صورة الخارطة التي أُرْسِلَت إلى سارة وعرضها عليه..

- أتعرف هذه الصورة؟

تبدلت ملامحه، رفع وجهه إليه.. ابتلع ريقه ثم أجاب بصوت مهزوز:

- لا.. خريطة أي بلد هذه؟ .

- لا أعرف، لكن أحدهم أخبرني أنك ستعرف.

- أظنه مخطئ، فلست خبير خرائط.

- حسنًا.. آسف لإزعاجك.

نهض من مكانه أمام أنظار زين، خرج من مكتبه عائدًا إلى غرفته.. لم تستيقظ سارة بعد، وقف بالشرفة يلفح الهواء البارد وجهه متأملًا البحيرة من بعيد.. لم يعد لديه طاقة تمكنه من الاستمرار.. لا يريد مزيدًا من المتاعب، أيغلق هذا الباب نهائيًّا ويبدأ حياة أخرى بدولة جديدة بعيدًا عن هذه الصراعات أم يكمل؟ .. بأي طاقة عليه أن يكمل ، وإن لم يفعل ما مصير هذا الكتاب؟ .

دخل إلى الغرفة.. فتح الحقيبة، نظر مطولًا إليه ثُم أعاده لها.. تركه مكانه، وما أن خطى خطوتين بعيدًا عنه حتى عاد جاذبًا الحقيبة مُلقيًا بها من الشرفة .

يراقبه وهو يسقط.. يختفي؛ حتى انصهر في الظلام كنجم لاح وانطفأ.. أهكذا انتهى كل شيء؟ .

يتأمل الظلام بعد اختفاء الكتاب فانتبه على صوت سارة الناعس من خلفه، التفت كالتائه وكأنه يتدارك الأمر، لاحظت عينيه الزائغتين..

- ما الذي جرى؟.

- الكتاب .

- ما به الكتاب؟ .

أدارت رأسها إلى المنضدة فلم تجد الحقيبة، التفتت إليه من جديد..

- عبدالله أين الكتاب؟ .

شرد بها طويلًا.. لا يعرف بما عليه أن يجيب..

- عبدالله أنا أسألك الآن أجبني..

- انتهى الأمر يا سارة .

- ما الذي انتهى .

- رميته..

صرخت فيه:

- ماذا؟ .. بعد كل هذا؟ ، كل ما مررنا به ألقيت به خلف ظهرك؟ .

أخبرني أين رميته..

أشار إلى الشرفة فخرجت إليها ملهوفة ثُم ألقت برأسها للخارج تدقق النظر علّها تلمح

الحقيبة ولكن الأمر انتهى بالفعل .. كيف لها أن تجدها بين هذا الظلام .

مسحت جبهتها بيدها وكأنها تحاول استيعاب ما يدور، أبعد كل هذا .. دخلت إليه وقد أعماها الغضب.. دفعته في صدره، للمرة الأولى تنسى الحدود ..

- غبي، غبي ..

رفع وجهه إليها، انكسرت عيناه .. لم ينطق كلمة..

- كيف لك أن تفعل بنا هذا، كيف لك بعد كل ما عانيناه.. سيد والتر يموت بسبب هذا الكتاب.. لا يمكننا العودة إلى حياتنا القديمة مهما فعلنا، هناك غرباء يطاردوننا.. ألقيت كل ذلك خلف ظهرك ونسيته .

لم تستطع التماسك، تحدّثه باكية بدمع الغمام.. علق مقلتيه عليها عاجزًا، هي محقة لكن الأمر بالفعل انتهى.. هو حتى لا يعرف أين سقط الكتاب، تركته وذهبت إلى السرير.. جلست وقد ضمت ساقيها إلى صدرها وأسندت جبهتها.. تبكي بحرقة، ما آلمها أنه خذلها.. كيف له أن يستهتر بكل هذا المجهود، كيف له أن يخلي مسئوليته ويتصرف وحده ببساطة.. اقترب من السرير بخطوات ثقيلة، جلس مقابلًا لها..

- أنا آسف.. أنا..

- أنا أكرهك .

صاحت فيه بها فاقشعر بدنه، أصابته الكلمة في مقتل.. لم يفكر في النتائج، لم يفكر فيها.. لم يفكر في أي من هؤلاء الذين حاولوا معه وكانوا بظهره .

- لا أريد أن أراك، لا أريد أن أسمع صوتك..

- أنا حقًّا آسف ..

- ماذا أصنع بها؟ ، كيف لهذه الكلمة أن تعيد الزمن لترمم ما حدث؟ .. كيف لها أن تبنيك بعيني بعد أن أصبحت صورتك فُتاتًا .

- لهذه الدرجة؟ ..

- وأكثر.. أنت خذلتني ..

الكلمات تدخل قلبه كالنصل الحاد، وقف من مكانه.. تنهد، حدثها بصوت منكسر:

- سنعود في الصباح إلى إنجلترا.

- تحدث عن نفسك ، من اليوم لن يجمعنا طريق..

آلمتها العبارة ووقعها على نفسه أشد، أخذ بعضه وخرج من الغرفة.. وما أن أغلق الباب وقف خلفه، سمع صوت عويلها بالداخل.. للمرة الكم هذه يتسبب في كل هذه الدموع ،

للمرة الكم هذه يتسبب لها بكل هذا الكم من الخذلان.. كم هو فاشل .

همّت بعينين تنزفان دموعًا تجمع أشياءها، فتحت الباب لتجده.. نظر إلى ما في يدها، حدثها بصوت ملهوف:

- إلى أين؟ .

لم تجبه، مسحت دموعها التي لا تتوقف ثُم أشاحت بوجهها.. تسير قدماها بعيدًا عنه وقلبها معه، كُلما ابتعدت خُطوة كُلما ازدادت تلك القرصة .. حتى وصلت إلى باب الفندق، ولجت منه لم تستطع أن تأخذ خُطوة أخرى.. تركت حقيبتها جانبًا، جلست في الأرض كصغيرة، ضمت ساقيها إلى صدرها.. بكت وكأن البكاء سينتهي من الدنيا، ارتفع صوتها.. رفعت وجهها لتجد ساقيه أمامها.. حدثها بصوت يميل إلى التماسك:

- أيقظت قاطني الفندق وسيبلغون الشرطة .

أعادت رأسها للأرض, لكنها كفت عن البكاء..

- ستظلين على هذه الوضعية كثيرًا؟ .. ستؤلم ساقيك وظهرك.

لم تجبه..

- حسنًا لا بأس.. أنا أحمق وغبي كالعادة..

نهضت من مكانها، حملت حقيبتها مهرولة.. همت بالانصراف فوقف أمامها، كلما حاولت الهرب اعترض طريقها ..

- تعرفين القواعد.. لا لمس ، لن أستطيع جذب كفك الآن من فضلك توقفي .

- ماذا تريد .

- أريدك أن تبقي..

- لمّ؟ .

- لأنني سأصلح كل شيء.

لا تعلم لما تصدقه .. أأصابها تعلقها به بالعمى؟ ، هو مجرد أحمق غير مسئول وقد أثبت ذلك أكثر من مرة.. لم هي معه كالآلي كلما قال كلمة استوعبتها وصدقتها من صميمها؟ .

- من فضلك ابقِ للصباح وعاقبيني بما شئتِ .

وقفت أمامه مستسلمة، جذب حقيبتها منها.. سار وهي من خلفه، لم تضف حرفًا.. يبدو أنها وقعت فيه أكثر من اللازم ولا مناص .

كان ليلًا طويلًا لم يضرب النوم لهما بابًا فيه.. مستلقية على السرير بجفنين متورمين،

وهو على الأريكة في الضوء الخافت يتأمل السقف.. تطرح الوساوس رأسه أرضًا حتى كادت تهلكه، ناداها:

- سارة.. أنمت؟ .

لم تجبه.. ادعت النوم ولا نوم، تُفكر هي الأخرى في مجهول ينتظرهما..

غفل عبدالله قبيل الفجر.. حَلّ الصباح، نهض من مضجعه يبحث عنها، ليست على سريرها.. فتش بناظريه ليجدها بالشرفة مسندة كفيها للسور وقد أسدلت جفناها، تُحرك نسمة الهواء الباردة شعرها ولباسها.. وقف إلى جوارها..

لاحظت ولم تلتفت، ألقى ناظريه حيث ألقت ناظريها..

- لازلت غاضبة؟..

صامتة، يرقص الغضب على أوتار قلبها.. يشعر بذلك ..

- معك حق ..

سأحضر حقيبتي لنخرج من هذا المكان، بدلي ملابسك.

تركته دون أن تجيبه، يتأمل حركتها وتجاهلها يقتله.. تجهزت وهو الآخر، نزلا.. قابلا الشاب من جديد، ابتسم لهما..

- تشاجرتما؟ .

فانتبه عبدالله لتلقائيته، أكمل حينها..

- أنتما ثنائي لطيف.. أتمنى أن تعود الأمور بينكما كما كانت .

مرت مارلي أمامهما.. طلبت مفتاح السيارة، تعمد عبدالله هذه المرة الحديث معها.. ضحكت فضحك.. التفت إلى سارة ليجدها جامدة،كالجبل لا يهزه ريح .. ظنّ أنه بذلك سيثير غيرتها ويتأكد أنه لازال داخلها بخير، لكن الخذلان يبني جدارًا.. افعل ما شئت فكل أفعالك في القمامة .

أنَّهيا الحديث وحملا الحقائب، همَّا للخروج من باب الفندق فسمعا أحدهم ينادي على عجل..

- انتظرا.. إلى أين؟ .

إنه صوت السيد زين .. ماذا يريد؟ ، أكمل حينها..

- عبدالله، هلّا سمحت لي ببعض الوقت..

- لماذا؟ .

- أريد الحديث معك بالأمر الذي سألتني عنه البارحة .

انتبهت حينها سارة، أجابه:

- للأسف.. فات الأوان .

- ماذا تقصد؟.

- أقصد أن ما أبحث عنه لم يعد بالشيء ذي القيمة.. نريد الرحيل.

أشار إلى سارة بأن تتبعه فاستوقفه زين ..

- لن تندم، فقط 10 دقائق .

استسلم في النهاية، تبعه ومن خلفه سارة التي بدا على وجهها قلة الفهم والتلهف لاستيعاب ما يدور.. جلسا ؛ مدّ زين يده لجلب شيء ما من على مكتبه الجانبي..

- أهذه لك؟ .

اشرأبت سارة بعنقها تمعن النظر، إنها الحقيبة التي تحمل الكتاب ، جذبها عبدالله ثم قام بفتحها..

- الكتاب .

رفع وجهه إليه..

- كيف عرفت أنها لي؟.

أخرج جواز سفره ثم قذف له به، استطرد مجيبًا:

- لقد نسيت هذا بجيب الحقيبة..

- كيف وجدتها؟.

- عامل النظافة وجدها على الأرض بمحيط الفندق ثم سلمها لنا للبحث عن صاحبها .

همس عبدالله *سبحان الله ، وكأن الأمر قدر كالسهم يأبى إلا أن يصيب*..

قطع تفكيره بسؤال:

- من أين لك بهذه الخريطة .

- عندما عرضتها عليك أخبرتني أنك لا تعرف عنها شيئًا ..

- أوصاني أبي قبل وفاته ألا يعرف عن هذا الأمر سوى صاحبه.. وتأكدت أنك هو عندما رأيت الكتاب، ما يحيرني هو كيفية وصولك للخارطة فقد سُرِقَت من أبي منذ عشرون عامًا .

تعجب عبدالله حينها، فكيف للسيد والتر أن يتحصل على هذه الخريطة إن كان الأمر كما يبدو .

- لم تجب ..

- إنها قصة طويلة.. المهم الآن أن من أرسلها لي أخبرني أن السؤال الأخير إجابته سأجدها عِندك.. نحتاج إلى مساعدتك .

- لولا الكتاب في يدك ما كنت لأساعدكما ..

- من أين لوالدك هذه الخريطة؟.. وما علاقته بها، هل مرتبطة بالرجل الغريب.

تبدلت قسمات زين، استطرد بتركيز:

- مَن الغريب الذي تقصده؟.

- رجلُ لا أعرف هويته، أتعقب أثرة..

قصّ عبدالله أوصافه على مسامعه، الآن تأكد أنه الشخص المقصود.. ذلك الذي طلب منه والده ألا يفتح الأمر سوى أمامه بعد موته ..

- هذه خارطة لدولة تسمى تاورد .

- ماذا تاورد؟.. أهناك على الأرض دولة بهذا الاسم؟ .

- لا .

لكن الخارطة وجدت بحوزة الرجل صاحب الأوصاف التي قُلتها أنت، تحصل عليها أبي منه قبل أن يتبخر كالماء ولا أحد يعرف كيف اختفى إلى هذا اليوم .

تذكر حينها عبدالله أول لقاء له مع هذا الرجل وكيف اختفى دون مبرر مفهوم أو تفسير منطقي لاختفائه..

- هل يمكنك أن تقص عليَّ ما دار بشكل أكثر تفصيلًا؟.

- أبي مواطن ياباني، في شبابه كان ضابطًا يعمل بمطار طوكيو.. منذ عدة أعوام بعيدة تحديدًا بالعام 1954م حضر مسافر غريب على واحد من الطائرات التي وصلت المطار آن ذاك.. لم يختلف زيه كثيرًا عن أناس هذا الوقت، لكن الأمر اختلف عِندما عرض جواز سفره.. فقد كان يحمل اسم دولة غريبة تسمى *تاورد*، والأغرب أنه تم ختمه من عدة مطارات لدول أوروبية.. أي أنه عبر عدة دول .

حدثه عبدالله متلهفًا:

- وماذا حدث؟ .

- عرضوه على أبي؛ تعجب حينها من كونه يستطيع التحدث بأكثر من لغة.. لقد كان يتحدث الانجليزية واليابانية والإسبانية وعدة لغات أخرى .

بعد التحقيق معه وتفتيش مقتنياته وُجدت هذه الخارطة معه والتي هي للدولة التي أتي منها.. تخطيطها الجغرافي كما رأيت أنت؛ مختلف ولا وجود لها على الأرض وكان يحمل كتابًا غريبًا تم مصادرته..

- هذا الكتاب؟ .

أومأ زين برأسه..

- على حد ما وصفه أبي لي نعم.. هو الكتاب .

علقت سارة:

- أكمل يا سيد زين..

- تم حجزه بالطابق الخامس بفندق قريب من المطار مع حراسة مشددة، بعد عدة ساعات من احتجازه اختفى.. تبخر، وأوراقه تبخرت معه.. جواز سفره والكتاب وجميع ما يخصه مما تم مصادرته، عدا الخارطة التي تخص دولته وقلادة .

استوقفته..

- أي قلادة .. هل هي معك؟ .

- نعم.. لهذا ناديتكما .

بعد اختفاء الرجل ظل الأمر بمثابة لغز حاولت الشرطة اليابانية حله ومن بعدها خبراء ولم يصلوا لسر هذا الرجل ولا هويته حتى يومنا هذا، أخفى أبي أمر القلادة وصادرت الشرطة الخارطة ولكن من بعدها تم سرقتها من قبل صائدي الجوائز فهي كنز ثمين للبعض.. قد يدفع أحدهم نصف ثروته في شيء كهذا إن كان مهووسًا بالغرائب.

بشكل ما فَهِم عبدالله كيف تحصل والتر على الخارطة وعنوان السيد زين .. لابد أنه دفع الكثير ..

- الأمر كان مريبًا آن ذاك للدرجة التي قلبت حياة أبي، اعتزل العمل بالشرطة وهاجر إلى بريطانيا وعاش بريفها بعيدًا عن كل هذا..

كنت أسمعه يحدِّث أمي بأن هذا الرجل يأتيه بشكل أحلام يقظة.. يخبره بأن يحتفظ بالقلادة حتى يأتي صاحبها ، الأمر يبدو جنونيًّا لكنه كان يصدقه لدرجة أن قبيل موته أوصاني أن أحافظ عليها حتى يأتي صاحبها..

تكعكع زين ثم ابتسم مكملًا:

- لم أتوقع أن صاحبها فتى من سن طفلتي مارلي، أن يحتفظ أحدهم بقلادة تخص شخصًا لم يولد بعد.. أمر جنوني أليس كذلك؟ .

شرد عبدالله، الأمر بالفعل يزداد جنونًا.. من هذا الرجل ولم هو تحديدًا .. لكنه أوشك وأخيرًا على حل الأمر.. سأله:

- أين القلادة؟ .

- بعنق مارلي .

تناول هاتفه ثم قام بالاتصال بها، كانت حينها بالسوق تبتاع بعض الحاجيات.. أجابت، طلب منها الحضور في الحال فلم تكذب خبر .

مَرّ بعض الوقت لتدخل مارلي ..

- نعم يا أبي..

- مارلي، أتى صاحب القلادة أستأذنك في إعطائي إيَّاها .

ابتسمت في إيماءة، جذبت قفلها من أعلى عنقها ثم قامت بفكها.. أظهرتها، لطالما أخفتها بقميصها..

تناولها زين ثم ناولها لعبدالله الذي اتسعت محجراه ما أن رآها، صاح حينها:

- هذا لا يصدق .. هذه قلادتي أهداها لي جدي عندما وُلِدت حيث تحمل أول حرف من اسمي، لقد اختفت وأنا في العاشرة، كيف لها أن تعبر قارات وتصل إلى هنا.. كيف لها أن تأتي من الماضي إلى الحاضر وهي كانت ملكًا لي منذ سنوات .. سأجن .

همست سارة إليه تهدئ من روعه:

- أظن الإجابة تنتظرك الآن ..

تناول عبد الله الكتاب يبحث عن رابط بين قلادته و المفتاح الأخير حتى وجده، ذاك الحرف البارز بالقلادة يشبه حفرة بنفس النقش على مقاسه تمامًا، وقبل أن يهم بوضعه خرج زين مع ابنته وتركه يكمل ما في يده مغلقًا باب المكتب.

وقفت سارة بمقربة من عبدالله.. وضع القلادة على النقش فابتلعها الكتاب كأرض جافة ضربها المطر ثُم استدار المفتاح بالمنتصف على الحرف A وانفتح القفل الثالث ..

أمام ثنتيهما دارت عين المنتصف ثم انفجر منها ضوء يشبه الليزر.. بدأ شديدًا جدًا حتى أنه منع عنهما رؤية ما حولهما ثُم عاد للهدوء رويدًا إلى أن اختفى وظهر رجلٌ ما، إنه الرجل الذي زاره في شقته وترك له الكتاب ..

وقف بجانب المكتب مسندًا كفه إليه، ابتسم ما أن رآه محدثًا إيَّاه..

- مرحبًا عبدالله .

وكأنه في صدمه، اقترب منه مهرولًا فاستوقفه قائلًا:

- لا تحاول.. تستطيع رؤيتي وسماعي ولكن لا تستطيع لمسي ، أنا لست في بعدك الآن والكتاب أمامك لن يصمد كثيرًا في بعدك، لذلك أنصت جيدًا ..

- مَن أنت؟ ، وماذا تريد .

- أنا مبعوث أندروميدا.. كوكب بالبعد السادس، يشبه كوكب الأرض لكن أكثر تطورًا وذكاءً قد تصبح الأرض مثله بمستقبل بعيد..

ظهر من خلف الرجل صورًا من الكوكب ثم تجسمت وابتلعت ثلاثتهم وكأنهم تركوا الأرض وسافروا إليه..

- هنا مركز الكوكب *تاورد*، سُمي بذلك تيمنًا بمدينة العلماء.

- ماذا تقصد بمدينة العلماء؟.

- صبرًا.. لا تتعجل .

- لماذا أنت هنا؟ .

- لأوصل أمانة لك..

- أمانة ماذا، ومَن صاحبها.. ولماذا أنا؟..

- أخبرتك ألا تتعجل؛ ستفهم كل شيء في القريب..

تبدلت معالم الكوكب من حوله إلى خراب، أناس جوعى.. أمهات ثُكالى، وشباب مقبورون .. ضربت قرصة قلب عبدالله.. إنه يشبه حالًا هرب منه ولكنه أسوأ..

أكمل الغريب:

- منذ أعوام بعيدة حكم كوكبنا القهر.. سرق النور وفرش الظلام، حتى أتى نضال يشعل شمس أندروميدا ..

***

الفصل التاسع

تمددت سيرين على ظهرها تتأمل السقف ولا تراه، عقلها هناك مع هؤلاء *سبستيان.. جهاد، آليس و.... نضال *..

يسكن قلبها كلما تذكرت كون شبيه لوالاس يعيش بأندروميدا.. ثُم تعود للواقع وتفكر في اليوم الذي حدثها بلاس عنه.. أبلغها باليوم والساعة التي سيفرغ فيها الموقع ليختلي الثوار ببيوس .

كيف لهم أن يدخلوا القصر ويخرجوا دون أن يمسهم سوء .. إن قتلوا بيوس فقد حققوا غرض بلاس ولا تأمن مكره.. وإن لم يقتلوه سيقتلهم هو ، إذن كيف لها أن تحل هذه المعضلة؟ .

همست لنفسها *إن استطعت ضرب بلاس ببيوس بنفس توقيت اقتحام الموقع، أظن أنني يمكنني النجاة بالثوار.. ليت الأقدار تسير لما أطمح إليه *.

دخلت آليس عليها لتجدها شاردة.. همست إليها:

- آنسة سيرين، أنت بخير؟ .

انتفضت من مكانها، ابتسمت:

- نعم.. نعم أظن ذلك ..

أفكر في القادم فقط، ستكون رسالتي الأخيرة هذه..

انقبض قلبها، أجابت حينها:

- أتمنى أن تسير الأمور كما تريدين .

أومأت برأسها:

- وأنا الأخرى أتمنى..

غرقا في الصمت، عادت تنتشلها سيرين من جديد..

- سيدة آليس..

رفعت وجهها إليها.. حينها استطردت:

- شكرًا على كل شيء..

اقتربت منها ثُم طبعت قبلة رقيقة على خدها.. لم تعرف حينها بماذا تجيب .. لكنها تفهم وتشعر جيدًا شعور سيرين، فقد كانت آليس السلوى الوحيدة لها بهذه الغابة الموحشة.. لولاها لما وصلت لهذه القوة، فبعد أن كانت جثة تسير على الأرض باتت تخطط لكل ما

يدور .

***

جلس سبستيان يتناول الطعام برفقة نضال، لا تسمع في مجلسهم سوى ارتطام الأطباق بالملاعق.. رفع وجهه إليه ليجده شاردًا غارقًا وكأنه بعالم آخر.. ناداه فانتبه .

- فيما أنت شارد ..

ارتسمت ابتسامة على شفتيه..

- وكيف لي ألا أشرد؟..

- تشعر بالقلق؟ .

- ربما ..

غرقا في الصمت.. فعاد سبستيان لسؤاله:

- لماذا تحاول؟ .

انفجر ضاحكًا..

- أنت لا تكف عن إعادة هذا السؤال .

- إجابتك لا تصيب في كل مرة..

ترك ملعقته من يده، شَبَّك أصابع كفيه..

- معك حق .

- وما الإجابة الصائبة؟.

- أحاول أن أحيا من جديد .

كَفَّ حينها سبستيان عن إلقاء الأسئلة.. جوابه يحمل ألف احتمال والألف يستحقون المحاولة لأجلهم ..

دخلت تيا تقطع حديثهما مرتدية زي التخفي، سألها:

- إلي أين؟..

- أريد بعض هواء الكوكب أيها العجوز ..

علّق نضال:

- سأرافقك..

أجابت ببرود:

- كما تريد ..

ترك منضدة الطعام مرتديًا زيه ثم لحق بها، خرجا لنفس المكان.. تل عالٍ بعيد شبه مظلم ترى من فوقه مساحة كبيرة من البيوت المتآكلة التي تنضح بالقهر .

همس لنفسه *لعلها ومضة تُعلمهم كيف يسعون إلى النور *.. التفتت حينها إلى همسه..

- تقول شيئًا؟ .

- لا .

لكن يبدو أن لديك أنت ما تقولينه ..

برقت عيناها بالدموع..

- تذكرني بوالاس..

- أعلم .. وهذا مؤسف..

اتسع محجراها.. أكمل حينها:

- أعلم أن رؤيتي تؤلمك ولا أحب أن أتسبب في هذا.

لانت نظرتها..

- لا بأس.. فكونك شبيهه شيء يبعث في نفسي الأمان رغم ما سببه لي من ألم، الأمر غير منطقي أليس كذلك؟ .

- على العكس .. أتفهم هذا.

- جيد ، الآن أخبرني.. على ماذا تنوي؟ .

- على أن تكوني معنا ..

- ما دوري ..

- سنتفق بعد الرسالة الأخيرة ..

عادت للصمت وعاد للتأمل.. تلاطفهما نسمات الهواء وعقلاهما كالجمر من التفكير.. ليت لهذه الألباب أن تصاب بحظ من البرد علها تهدأ .

***

دخلت آليس على ابنها جهاد الذي كان مستلقيًا على سريره مسدلًا جفنيه فاتحًا ذراعيه وكأنه يحاول الاسترخاء.. كادت أن تتراجع لولا أن ناداها..

- أمي.. إلى أين؟ .

اعتدل جالسًا على السرير، أمسك رأسه يحاول التوازن.. فتح عينيه ثم ابتسم..

- ماذا هناك؟ .

أجابت بصوت مضطرب:

- إنها رسالة سيرين الأخيرة .

التقطها متلهفًا.. كان في انتظارها، ثم رفع ناظريه إلى أمه.. يأكلها القلق ..

- أمي ماذا أيضًا؟ .

جذبها إلى ذراعيه وضمها طويلًا، استسلمت لدموعها فخوفها عليه يفترسها.. قبَّل رأسها هامسًا:

- لن يصيبني أي أذى.. لا تخافي ..

ثابتة متعلقة برقبته كالطفلة.. يكبر الابن فيصير أبًا لأمه فقط عندما تحسن تربيته .. دخلت فكتوريا لتجدهما على هذا المنظر، رفعت إحدى حاجبيها ثم تحدثت بصوت عال:

- كنت أعرف أنكِ تحبينه أكثر مني .

ابتعدت عن ذراعيه ثم التفتت ضاحكة، اقتربت ابنتها منها ترمقها بغضب ثم ذهبت إلى جهاد تضربه في كتفه:

- لا تظن أنك ستسرق قلبها مني.

- ألن تكفي عن هذا أيتها المعتوهة .

- إن لم أكف ماذا ستفعل؟ .

- سأريكِ .

حملها بين ذراعيه ثم ألقى بها على السرير بعنف، نهضت بصعوبة من مكانها وقد انفجرت ضاحكة تصرخ فيه:

- غبي .

- ليس أكثر منكِ ..

صدم رأسها بكفه بمزاح فصرخت فيه:

- وأحمق..

- لا تستفزيني..

اقترب منها خطوة فتراجعت عن استفزازه خشية أن يتهور في المزاح فيضربها بشيء.. اكتفت بنظرات حادة أمام ضحكاته الساخرة، حدثها متحديًا:

- الدرس الأهم.. لا تدخلي معركة موقنة بخسارتكِ فيها، يا فلحوس.

ضحكت آليس عليهما، لا يكفان عن الشجار وكأن أحدهما سرق طعام الآخر ..

***

وصلت الرسالة إلى يدي نضال، وقف إلى جواره سبستيان الذي ضغط زر تشغيلها ليستمعا إليها..

انفتحت الرسالة، انتفض سبستيان عندما لمح الغرفة التي تبث منها حيث التحكم بقمر المراقبة .. همس متحمسًا بصوت شبه مسموع *أحسنتِ سيرين *..

أظن أن الرؤية هكذا واضحة.. لا أضمن أن أبقى بمفردي طويلًا قد يدخل بلاس في أي لحظة ، كيف حالك سبستيان.. نضال؟ ..

نادت اسمه بلين ثم ابتسمت، عادت تكمل:

*كيف حال الجميع، أحتاج إلى تركيزكم فأي خطأ سيقتلنا ، أمامكم خمسة أيام قبل يوم الاقتحام.. سيفرغ بلاس الموقع من أي جنود وسيبقى بمنزله، دعوا أمر التخلص منه لي.. أما نضال سيدخل بمفرده هذا المكان.. هنا..

أشارت إلى موقع البث..

تستطيع من خلال هذا المدخل أن تبث مباشر لكل مصادر البث على الكوكب، ومن هنا.. تستطيع إفراغ ما بجهازك من بيانات لفضح بيوس ومن والاه..

البقية عليهم أن ينتشروا بالموقع حتى لا يكون ظهر نضال مكشوفًا.. لا يجب أن يتخطى عددكم الخمسة أفراد حتى لا يشعر بكم أحد .. لا تنسوا الأقنعة، والوقت.. الوقت أهم عامل بالمعركة.. نحاول أن نخرجكم من هناك بسلام ..*.

انتهت رسالته..

التفت نضال إلى سبستيان يطلب منه جمع الشباب فلا وقت لديهم.. أيام فقط وتبدأ أهم معركة قد ينقلب الكوكب عقباها رأسًا على عقب ..

***

جلسوا جميعًا صامتين يتأملون بعضهم بعضًا.. ارتسمت ابتسامة على وجه نضال محدثًا إياهم:

- غدًا سنعد العسل ..

التفت يوجين، وكأنه يفهم ما يرمي إليه لكنه يريدها صريحة فأكد حينها نضال:

- غدًا محاولتك الأولى لنيل مرادك يا يوجين .. فليهدأ قلبك .

علّق يُليان:

- على ماذا تنوي؟ .

- على البرق الأول بالرقيع المظلم .. سنقتحم بعد أيام مقر بيوس ..

عاد لتأمل الجميع..

- اسمعوا..

دخولنا سيكون سهلًا، لكن خروجنا من هناك لن يكون سهلًا أبدًا..

يوجين ويُليان وتيا ستكونون معي بالداخل، جهاد لا يجب أن يكون معنا..

تحمس حينها جهاد:

- لماذا؟ ..

- حتى إن قُدر بحدوث شيء، لا يهلك جميعنا.. أعتمد عليك في الخارج جهاد ..

عاد موجهًا كلماته لسبستيان:

- أنت هنا أبًا للجميع .. سيد سبستيان تابع دون أن تترك مقرك، المدينة هنا عليها أن تكون البداية .

أومأ برأسه.. ابتسم له نضال:

- سررت بمعرفتك أيها العجوز ..

- وأنا.. والاس .

غمزه.. ثم علّق:

- مهما كانت النتائج سنرضى.. المحاولة دائمًا نهايتها فلاح، وتذكروا ما قلته دائمًا *ليس بالضرورة على صانع العسل تذوقه.. يكفيه صنعه لمن يستحق*..

تنهد، شرد لدقيقة:

- تيا..

انتبهت:

- ستراقبين غرفة بيوس .. عليك مراقبته جيدًا، سيرين ستكون بالداخل..

يُليان ويوجين، سيحميان ظهري ..

سأدخل مفردي موقع البث.. لا تنسوا الأقنعة ، شرفت بمعرفتكم جميعًا .

***

اقتحم أربعة رجال فندق يوكي يو ومعهم أسلحة ثقيلة.. بمقدمتهم رجلُ غريب، انبطح الجميع على الأرض، صرخ الرجل:

- أين الشاب والفتاة؟..

صاح زين:

- من أنتم؟ .

التفت إليه في برود وبصق علكة كان يمضغها في فمه.. نظر صوبه نظرة طويلة وكأنه يكن له الوعيد.. حدثه بنبرة حادة هادئة:

- أنا هنا من يطرح الأسئلة ..

أجيبوني وإلا لن يخرج من هنا واحد حي ..

***

وقفت شاحنة في صلب النهار بشارع جانبي، حملت نضال ويُليان وتيا ويوجين.. تحركت حيث موقع بيوس الذي كان يغط في نوم عميق.. أما سبستيان فقد بقي في المدينة منتظرًا ، جهاد بين القبور متأملًا وجوه الموتى متسائلًا، أ لازال هناك أمل؟ .. وقلوب الجميع تدعوا الله أن تمر هذه اللحظات على خير ..

الطريق أطول مما يبدو عليه، يفكرون في أحبابهم تارة.. تتلاعب بهم الوساوس مرة، ويعقدون العزم أخرى.. وهكذا وهكذا حتى وصلت الشاحنة إلى مرادها .

للمرة الأولى لا غطاء حماية يمنعهم من الدخول، المكان بلا حراس فقد أمر بلاس القوات بالانسحاب جميعها، وسيرين هناك ..

وقفت الشاحنة، خرج السائق الآلي ثم انفجر ذاتيًا أمام مرآهم.. دخلوا وهم على ثقة بخطواتهم، أشار نضال لتيا بأن تراقب غرفة بيوس ووقف يليان ويوجين على أعتاب موقع المراقبة.. حينها ظهرت سيرين ..

أدركت نضال من بين الأقنعة.. وقفت مقابلًا له بعينين متلهفتين، بدت راغبة في اختراق قناعه وهو الآخر ارتبك ..

- مرحبًا.. والاس .

أومأ برأسه.. فأكملت:

- هل يمكنني أن أطلب شيئًا؟ .

- نعم .

- هلا رفعت قناعك، أريد.. أريد لو أرى وجهك من فضلك .

تجمد لنصف دقيقة، رفع يده إلى قناعه لإزاحته.. وما أن لمحت وجهه حتى فقدت اتزانها، اقتربت منه خطوة، انقلبت نظرتها إلى أخرى تستعطفه..

- هل أستطيع عناقك؟.

وقبل أن يعي سؤالها تعلقت برقبته، يداه إلى جواره ويداها متشبثة لا تريد تركه.. ثم تحول صمتها إلى بكاء، وكأنها وأخيرًا وجدت ضالتها .. رفع يده يمسح على شعرها؛ يطلب منها دون حديث بأن تهدأ ، يفهم مدى شوقها لشخص والاس..

تركته متراجعة، مسحت دموعها ثم حدثته:

- آسفة .

ابتسم لها.. أعاد قناعه إلى وجهه من جديد، فتحت البوابة وأعطته مفتاحها..

- أمامك ساعة لا تتأخر ..

أريد أن أضمن خروجكم من هنا بسلام ..

هز رأسه في إيجاب ثم ولجها.. أشارت ليوجين ويليان بأن يحذرا حتى إن تغير شيء ، ما أن لمحت تيا حتى غمزت بعينها، ثم دخلت إلى غرفة بيوس .

على الجانب الآخر أمّن بلاس نفسه جيدًا بتكثيف الحراسة حول موقعه، ستنقلب الدنيا بعد ساعة من الآن..

***

انفتحت الشاشات الأثيرية بكافة أنحاء الكوكب، توقف أهل أندروميدا عن الحركة.. أي بيان سيبث الآن؟ .. لم يظهر بلاس مقنعًا ككل مرة، من ظهر هذه المرة رجل هيئته كهيئتهم مما أثار فضولهم..

- مَن هذا؟ ..

شبك أصابع كفيه، حدثهم بلكنة جادة..

*صباح الخير أهل أندروميدا.. كيف حال الجميع، آسف على مقاطعة خط سير العبودية اليومي الذي تمارسونه ولكني أريد منكم الانتباه لي بعض الوقت.. أنا شاب من أبناء الكوكب، مما تنعتونهم بالعلماء القتلة.. ذنبي ومن مثلي أنَّا أردنا حياة أفضل للجميع بعيدًا عن مطامع شخصية، أتي بيوس الكلب ورجاله.. اغتصبوا حقوقكم وقتلوكم ثم حدثوكم

افتراء أننا من فعلنا.. أعلم أن الأمر لا يصدق دون دلائل، لذلك تابعوا هذه المشاهد لهؤلاء المجرمين وهم يفعلون بكم ما كرهتموه، التقطها قمر أندروميدا الذي استغله المغتصب بيوس ومساعده لإحكام قبضته*..

بدأ بعرض المشاهد، أمهات ثكالى ترى أبناءها تُذل من قبل قوات بيوس قبل القتل، وشباب ترى آباءهم وزوجات ترى أزواجهم، مشاهد لأعراض تنتهك.. وقلوب تُدمر، وعزة اتسخت بالوحل .

***

استيقظ بيوس ليجد سيرين إلى جواره تبكي .. اعتدل متعجبًا فهذه المرة الأولى التي تدخل فيها غرفته.. سألها:

- ماذا هناك؟ .

صُعق بلاس الذي ما لبث أن رأى ذلك حتى فهم بأن سيرين باعته، فليس هذا اتفاقه معها.. هَمّ لمغادرة موقعه فمنعته القوات التي وضعها لحمايته وكأنها تلقت أمرًا ما.. شيء مريب يحدث ، علم بكونه هالك لا محالة.. أقسم حينها بأن مركبه لن تغرق وهو فيها بمفرده ..

ما أن انتهى العرض، وانكشفت الحقائق أمام الجميع.. وقف الناس بقلوب مشتعلة إلا البعض ، يصدقه شرذمة فتود لو افترست هذا الكلب.. وأخرى ترى ما تراه ادعاء، أتعرف ما معنى أن تقتل ابن لامرأة ثم تخبرها بأنك تبحث عن القاتل فتكتشف بعد كل هذا الزمن أنك أنت القاتل، قتلت ثمرة فؤادها وخدعتها.. الأمرين معًا؟ .

أكمل حينها نضال:

قتل داخلكم الكرامة، علمكم أن اللقمة أهم من العزة ثم رمى لكم فتات لا يشبعكم، سرق قوتكم وأخبركم أن لا قوت لكم .. منع عنكم ما يعف أحدكم عن الآخر فلا يسرقه، بِتُّمْ بسببه كالحيوانات طعام ونوم وإنجاب.. لا أخلاق ولا مبادئ ، أوهمكم بالأمان ولا أمان.. قد لا أخرج من هنا على قدمي، ولا أملك فرصة لأحيا.. ولكن الفرصة الآن أمامكم، لا تتركوا الحمقى يسرقون المستقبل.. لا تتركوا الغيلان تأكل أطفالكم، أخرجوا من قبوركم ..

أُغلق البث ، والناس كالسكارى.. أَمَا رأوه واقعًا؟ ، أم أنه كابوسًا واحدًا حَلّ على أهل أندروميدا؟.

التوقيت.. أخطأوا هنا ..

خرج نضال ليجد يوجين ويُليان بين قبضة الآليين راكعين على الأرض.. وبيوس يقف من بعيد ، اقترب منه بخطوات تحمل الغضب، نزع عن وجهه القناع.. توقف لدقائق..

- لقد كان بلاس الكلب محقًّا، أنت فتحت الجحيم على نفسك اليوم .

التقطه رجاله ثم عصبوا عينيه.. زجوه يسوقونه حيث لا يدري، تتناطح الأفكار في رأسه.. أي قدر ينتظره هو ومن معه؟ .

همس إلى نفسه *أين تيا؟*..

أعلنت حالة الطوارئ بكل أنحاء الكوكب، الناس كيوم الحشر يموج بعضهم في بعض.. انتشرت قوات بيوس موجهة أسلحتها تبث الرعب وتفرق الجمع.. صراخ، عويل.. وهرولة.

عاد البث.. منزل بلاس، راكع على الأرض والناس تشاهد.. أحدهم موجه فوهة سلاحه إلى رأسه ..

- سيرين ما بك؟..

- بلاس أمر بسحب القوات من الموقع لمنزله ولا أدري ما الذي يحدث، أنا خائفة..

فتحت أمامه جهازًا يحمل بصمات صوته، يخبرها فيه برغبته في قتل بيوس والزواج منها، اقتطعت من حوارها معه ما يدينه.. رغبت بأن يقتله قبل أن يدخل الثوار لقتله فتتخلص منهما معًا وتفتح المجال للأحياء لاحتواء الرأس ..

أخرج جهازًا صغيرًا، همس فيه *اقتلوا بلاس ليكن عبرة *..

تأملت سيرين المؤقت.. الوقت ينسدل من بين أناملهم.. تخشى أن ينكشف الأمر .

أغمض بلاس جفنيه.. تنتفض خلاياه رعبًا، عوى ثم انفطر باكيًا.. وكأنه فقد عقله..

لا أريد الموت، لا تقتلني أنا لم أفعل شيئًا هي من فعلت كل شيء..

خيانة بعمره كله.. وذل له قبل الموت، حياة قذرة .

يشفق البعض عليه مما يرى وآخرون منتشون.. ها هو الظلم يصطدم رواده بعضهم ببعض .

ضرب الآلي رأسه بذاك السلاح.. هذه ليست بالموتة السريعة أبدا، اخترق هذا الشيء رأسه يفجره قطعة قطعة.. تسمع صراخ بلاس يكاد يقتلك، حتى انفجرت رأسه كاملة وخرَّ ميّتًا على الأرض .

تيا أول من سقط .. تيا البداية للنهاية.. أراد طرق الحديد وهو ساخن، أراد كسر شوكة الشعب.. لنضرب من في قبضتنا فيهاب البعيد عنا الضرب .

فصل بيوس كل منهم عن الآخر.. وانفرد بتيا .

- كيف حالك أيتها الجميلة؟ .

فكَّ قيدها، أزاح عن عينيها العصابة..

- هاه أخبريني الآن، كيف أفتح البوابة من هنا؟ .

ركزت رؤيتها المشوشة، إنه مفتاح البوابة للمدينة .. رمقته بنظرة حادة، بصقت في وجهه.. مسح بصقتها مبتسمًا..

ثم.. ثم صفعها صفعةً أردتها على الأرض.. فقدت وعيها، أمر الآليين حينها:

- أفيقوها.. حفلتنا لم تبدأ بعد .

أرسلت سيرين برسالة إلى جهاد تحدثه بأن يخبر سبستيان *الجميع بين قبضة بيوس، اخلوا *تاورد* فلن تصمد *تيا *..

- اللعنة .

- لا وقت سيد سبستيان.

صرخ في الجميع بفتح البوابات كلها وترك كل شيء...

- غادروا .. لم تعد *تاورد* مأمنًا لأحد..

فَلَّ الناس من كل صوب وحدب إلى سطح الكوكب، وقف يتأمل منزله القديم.. ذكرياته معه، هذه ليست جدران بل أيام حملت الكثير من الذكريات.. كيف له أن يترك ذكرى والاس هنا.. أن يترك نضال وتيا ويوجين ويُليان .. فالذكرى حيّة وإن رحل أصحابها .

حَمل آخر أبحاثه عن التنقل، خرج ولم يبقَ سواه وأعداد لا تُذكر.. اقتحم رجال بيوس المدينة، دخلت أسلحتهم الطائرة تغطي السماء.. وجنوده كالرمال على الأرض، انتشروا كالنار في الهشيم يضربون كل كيان فيدمرونه تدميرا.

توارى سبستيان برداء التخفي خلف واحد من البيوت، ترى انعكاس النار في عينيه الدامعتين.. أهكذا انتهى كل شيء؟ .. فتح بوابة وخرج منها مكسورًا حزينًا، يشعر وكأن روحه غادرته.. سفينة النور تغرق ولا مغيث.

حاصر الآليون الكوكب بأكمله، لا نفس يخرج إلا بإذن بيوس.. حكمة السوط أتسمع عنها؟ ، لم تختفي الشاشات في يوميه هذين، أخرج أربعتهم أمام الشعب بأكمله، جنبًا إلى جنب فيسمع كل منهم صراخ الآخر .. وسبستيان وجهاد وسيرين وهَيّا وأم يوجين من بين العامة في الشوارع .

،بَدأ بنضال.. فَك عصابة عينيه أمام الشاشات..

- مرحبًا بك والاس، كالقطط بسبعة أرواح .. لا أفهم كيف نجوت ولا أريد لكني أعدك بأن الأمر لن يتكرر ..

لكمه فبصق سِن وكسر إحدى طواحينه ، تأوه.. ولكنه من بين الألم ابتسم، استفزه.

- على أي شيء تضحك؟ .. أشبح الموت ألقى على مسامعك نكتة؟ .

- بل أشم رائحة خوفك .

- بين يدي وتنعتني بالخائف؟ ..

- عليك أن تخاف مما سينتظرك.

- وما الذي ينتظرني من ميت؟ .

- ومن قال أن ما ينتظرك سأصنعه أنا؟ .

عاد لصفعه فانقلب نضال على الأرض، لم تغادر ابتسامته وجهه رغم تأوهه.. أمسكه بيوس من قميصه غاضبًا:

- قُل ارحمني وسأقتلك سريعًا .

ضحك فبدت ثناياه المخضبة بالدماء ..

- ومن قال أني سأموت؟ .

- أنا قلت..

وقف من مكانه وقد تناول سلاحه، ضرب قدميه فانفجرت.. صرخ نضال من الألم حتى بُح صوته.. والناس يتأملون حزنًا تغلي الدماء بعروقهم.

- قُل الرحمة وسأقتلك سريعًا .

لم يجب.. اقترب منه يغرس أنامله بجُرح قدميه المتفجرتين فعاد للصراخ حدثه حينها:

- ما رأيك لو أجرب معك إحدى حيل القدماء؟.

طلب من آليين ربط ذراعيه وجذبهما حتى تتقطع أوصاله.. فتسمع طقطقات عظامه وهي تنفصل عن بعضها بعضا.. صُراخ يفطر القلوب ملأ الأرجاء.. والثلاثة إلى جواره ينتظرون دورهم.. لا حيلة يقدرون بها على إنقاذ أنفسهم ولا إنقاذه.. يصرخ ولا مغيث حتى تقطعت أوتار صوته ، وما أن أوشك على فقد وعيه أطلق سلاحه على رأسه فانفجر وخَرّ على الأرض ميتًا .

الطعنة الأولى بقلب سبستيان، لم يستطع التماسك وقف يبكي كالأطفال.. تمطر دموع عينيه بغزارة.. في أي شيء أتي نضال، وفي أي شيء غيّر وجهته؟ .

أما سيرين فكأنها ترى مقتل والاس من جديد ، كتمت دموعها وقلبها يذوب.. تتوعد بكونها ليست النهاية مهما طال الزمن .

أتى بيوس بتيا جرًّا على الأرض.. لا ذرة بجسدها سليمة، ماذا فعل بها هذا الكلب.. رفع سلاحه عليها ثم حدثها ساخرًا:

- لا أنتشي بصراخ النساء .

صوب ناحية قلبها فانفجر، ثم أكمل:

- النساء عاطفيات أكثر، حتى وإن كنّ يشبهن الرجال ، لذلك كان من الأفضل إسكات قلبك للأبد .

جذب يُليان وما أن لمحته هيّا حتى انتفضت من الرعب، وكأن قلبها سقط في عمق لا تعلم هويته.. سيذهب كما ذهب إدوارد ويتركها؟ .. كادت أن تفقد صوابها وتصرخ باسمه، حتى وجدت يدًا تضرب على كتفها بلطف لتجده.. إنه جهاد، ذاك الشاب الذي قابلته ونعتته بابن الخادمة، همس لها:

- اهدأي .

أوشكت أن تصرخ فهمس إليها..

- أوصاني يُليان بملازمتك والحفاظ عليك.. لا تفعلي ما يؤذيه .

وقفت متجمدة، كان يعلم أنه قد لا يخرج من هناك على قدميه ولم يخبرها سوى بكونه سيبقى إلى جوارها للأبد.. أي أبد هذا أيها الكاذب؟، أتشعر بقلبي الآن .

ترددت على رأسه في لحظاته الأخيرة، يعلم كونها تشاهده وتتألم ولكنها الآن بين أيدٍ أمينة.. حاول شراء المستقبل لغيره، علم مهمته وأوشك الآن على إنهائها..

- لا لا لحظة .. اجذب يوجين هذا إلى جوار صديقه ..

علينا ألا نفرق بينهما في الموت، كما كانوا في الحياة ..

- يوجين ..

همست بها أمه.. أستشاهده يموت الآن ، ضربت صدرها وكأنها تطلب من ذاك القلب المزعج أن يكف عن الألم.. وكأنه سينفجر، أحرقت العبرات أجفانها.. همست وكأنه يسمعها ..

- إلى أين يا عزيزي؟ ، أستغيب للمرة الثانية عن أمك؟.

بمن تستغيث لينقذه من بين قبضة هذا الكلب؟ ، أتدري ما شعور أم ترى فلذة كبدها يساق للموت أمام عينيها ولا تستطيع فعل شيء؟ .

- مللت..

قالها بيوس فابتسم يوجين ويُليان كل منهما للآخر، عيناهما تتحدثان *لن يفرقنا الموت..

لنلتقي إدوارد *..

همس يوجين وكأن أمه ستسمعه *سامحيني أماه.. ولكنه دوري*..

أطلق عليهما سلاحه فانفجر رأسيهما، وخرّا على الأرض غارقين في الدماء.. رحل قلب أمه وتركها بلا قلب.. صدرها أجوف تُصَفِّر فيه رياح الألم، أي وصف لهذه الفاجعة؟ .

انسدل هُنا الستار على الكوكب، اختفت الشاشات واختفى معها ذاك الحُلم، وأظلمت السماء والأرض بقوات بيوس، بكمِّ الرعب والغضب داخله كانت أعدادهم، خَشيَ من ومضة أطلقها هؤلاء داخل هذا القبر.. لا يريد أن يستعيد هذا الشعب ذاكرة النور فيعود له كبرياؤه الذي دفنه الجوع منذ زمن.. أن تحكم نفسك لا أن يحكمك أحدهم قهرًا، ماتوا وهم يحاولون صنع العسل .

اضطرب عبدالله مما رآه، ألف خاطرة وعكسها ضربت قلبه ومِنْ ثَم عقله.. لم يعِ سوى بدموع دافئة حزت بجلباب خده فالأمر يشبه أمسًا قريبًا، حدّث الغريب:

- ماتوا؟ .. جميعهم .

أومأ برأسه، ثم علّق:

- لكن النور لم يمت.

- كيف؟ .

- تغيرت مفاهيم أكثر الناس، نجح نضال ومن معه في إحياء آخر ذرة كرامة .

بيوس أصابه الجنون فما كان يسمع بأن أحدهم ضده حتى قتله في عقر بيته فوجد الأحرار أن من الحكمة التريث ثم جمع الشتات والعودة بكيان أقوى .

- وما مصير سيرين والبقية؟ .

- بعد ما حدث طلب منها بيوس العجلة في إتمام مراسم زواجه منها فلم تتأخر.. وجدت أن عليها أن تنخفض للموج رغم ما تعانيه حتى تستطيع إحكام قبضتها.

سبستيان لم يتوقف عن أبحاثه بمساعدتها، فقد استطاعت صرف الأنظار عنه.. وجهاد حاول جمع الشتات..

- وهَيَا .

- تزوجها جهاد ملبيًا طلب يوجين قبل موته بأن يحافظ عليها ويحميها.

عاد الغريب للابتسام يحدّثه:

- بعد الحادث بأعوام قليلة.. استطاع جهاد جمع شتات من استيقظ، وقُتل بيوس على يد شعبه بمساعدة سيرين.. وعادت أندروميدا تحكم نفسها من جديد .

صمت عبدالله لدقيقة ثم استطرد:

- من تكون؟ .

- أنا ابن سيرين وبيوس .

اتسع محجريه دهشة، كيف لأمه أن تزرع فيه هذا على الرغم من كون أبيه مجرمًا .. تجاهل الغريب ردة فعله التي يعلم معناها جيدًا، أكمل حديثه:

- طلب نضال من السيد سبستيان ما أن تنجح تجربة المرور عبر الأبعاد بإرسال قصته لك.. رحل سبستيان مذ زمن بعيد، وها أنا أوصل لك أمانتك كما أوصتني أمي .

أنظر..

تحركت الصور من حولهم ليرى مجسم عملاق منحوت لرجلين يشبهان بعضهما البعض ينظر كل منهما للآخر وكأنها مرآة تعكس صورتها؛ وكفيهما مواجهان يتلامسان..

- هذان والاس ونضال، تخليدًا لما فعله هذا الشاب..

- لماذا أنا؟.. مَن أين يعرفني نضال؟ .

ما أن انتهى من طرح سؤاله حتى ابتلع الكتاب صوره فعادت الغرفة لمظهرها القديم، علقت سارة:

- أين اختفى الغريب؟ .

ارتفع الكتاب أمام ناظريهما تتلاشى جزيئاته رويدًا في الهواء كالحلم، حتى اختفى وكأنه لم يكن.. صرخ عبدالله:

- انتظر.. أنا لم أعرف مَن نضال بعد؟ ..

ارتسمت نظرة متلهفة على عينيه وما أن أدرك أن كل شيء اختفى ولن يعود؛ تبدلت بأخرى محبطة.

لم يعِ سوى بصوت سارة تناديه، حدّثته مواسية:

- أخبرنا أن الكتاب لن يصمد، أوصل رسالته وهذا ما كان يريده..

التفت إليها ليجد عينيها ممتلأتين بالدموع..

- لماذا تبكي؟ .

وقبل أن تهم بالإجابة سمعا صوتًا بالخارج وكأنه شجار.. خرج مهرولًا وهي من خلفه، إنها الشرطة وجُثث على الأرض من كل جانب .. ما هذا؟، إنه السيد والتر ..

أسرعا إليه، سألته سارة:

- سيدي .. أأنت بخير؟ .

- حاولوا قتلي ولكن من سوء حظهم وحسن حظي أن أحد الممرضين دَخل في آخر لحظة .. أبلغت الشرطة وها أنا هنا ..

علّق عبدالله:

- كم لبثنا بالداخل؟ .

- سبعة أيام.. حاولوا اقتحام المكتب ولكن شيء ما كان يحميكما ، أتيت متأخرًا ولكن لا بأس ، لازلت متعبًا كما ترى.. من الجيد أني أستطعت المشي على قدمي وإلا أصبحتما في عِداد الموتى .

- معقول؟ .. لم نشعر بأي شيء ..

- أكان معقولًا كل ما مررتما به ليكن هذا المعقول؟.

- معك حق .

التفت عبدالله يتأمل المجرمين الذين يساقون إلى سيارات الشرطة بالخارج..

- أهؤلاء من طمحوا للكتاب؟ .

- نعم..

- مَن يكونوا؟ ..

- أنظر إلى الرجل هناك.. أتعرفه؟ .

صرخت سارة:

- نعم.. نعم هذا الخبير صاحب صور *سيرجي برامينيجو*.. من تحصلنا عنده على أول مفتاح .

- هذا من حاول قتلي ، المهم الآن أين الكتاب؟ .

- اختفى..

ابتسم والتر متحدثًا:

- انتهى كل شيء إذن .

لا دليل على شيء.. فكل ما يخص الكتاب اختفى، حتى الخريطة التي أرسلت لكما صورها اختفت هي الأخرى.. اسمعا .

أنتما لا تعرفان أي شيء مما يتحدث عنه هؤلاء المجرمون، سيساقون إلى السجن أو إلى مصحة الأمراض العقلية ومنها إلى السجن بسبب ما ارتكبوه من محاولات قتل .

سررت بمساعدتكما ..

تعلق عبدالله بذراعيه يضمه ممتنًا.. فضمه الآخر وكأنه ابن له..

- سأشتاق إليك سيد والتر..

- وأنا الآخر بنيَّ .

قطع حديثهما صوت الشرطي يطلب منهما مرافقته للاستماع إلى ما حدث تفصيلًا ففعلا..

يوم يليه يوم.. انتهى عقبها ما توقعه سيد والتر، المصحة لهؤلاء ومن ثَم السجن، فمن سيصدق حكاية الكتاب الذي أتى من بُعد آخر سوى مجنون؟ .

خرج من مقر الشرطة للمرة الأخيرة وهي إلى جواره.. توقفا للحظات.

- عبدالله..

- ماذا؟ .

- هل انتهى كل شيء؟.

هزّ رأسه في إيجاب:

- أظن ذلك .

استأنفت وقد بدى في صوتها الاضطراب:

- على ماذا تنوي؟ .

- سأحاول صُنع العسل .

- ماذا تقصد؟.

- سأعود يا سارة.

فهمت إلى ما يرمي، صمتت لدقيقتين فقطع صمتها:

- سُررت برفيق جيد مثلكِ.. أعتني بنفسك .

امتلأت عيناها بالدموع..

- لا أرجوكِ لا تفعلي هذا الآن .. لا تبكي .

- عبد الله خذني معك .

- أين؟ .

- أيًا كانت وجهتك ستكون وجهتي..

صمت قاطبًا حاجبيه.. انفرجت قسماته العابسة ثُم ابتسم، أومأ برأسه:

- طريقي واعر يا سارة ، لن يناسب حسناوات يبكين في الظلام .

- أعلم .

وقفا صوب بعضهما بعضًا، تتأمله بمُقل ممتلئة بالدموع ويتأملها صامتًا وكأنه يفكر في إجابتها التي في كل مرة تخرسه.. فماذا سيكون قراره؟ .

***

بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا

بإحدى المستشفيات الحكومية المجهزة على أكمل وجه بمحافظة القاهرة، جلست امرأة خمسينية بواحدة من الاستراحات.. لنقترب قليلًا ، إنها سارة .. ماذا تفعل هناك يا تُرى؟ ، وكأنها تنتظر أحدهم .

خَرج شابٌ من إحدى الغرف يحمل طفلًا بين ذراعيه بدا وكأنه وُلد لتوه ؛ مُهرولًا حذرًا على ما في يديه متجهًا صوبها ، ناداها بصوت متلهف تشوبه الفرحة:

- أمي .

انتصبت من مكانها فور أن سمعت صوته، هرولت إليه هي الأخرى تقابله:

- مُحمد يا حبيبي .

- أُمي هذا حفيدك .

قلبها رقص في صدرها ما أن سمعت ما قاله، *حفيدك *.. ما أجمل هذه الكلمة ، ناولها إياه فضمته إلي صدرها حذرة، ساعدها في الكشف عن وجهه..

- يا لك من جميل .

حَرّك رأسه في لطف، ثم فتح عينيه بلحظة خاطفة.. علّق ابنها:

- يبدو أنه ورث عين جدته ..

ابتسمت، ثم أكملت:

- ووجه جده ، يشبهك يا عزيزي فأنت تمتلك ملامح أبيك.. سيكون شابًا جميلًا..

- أسميته نضال .

الاسم ضرب رأسها فأرجع كل لحظات الماضي، سألته بصوت مضطرب:

- أين سمعت هذا الاسم .

- حلُمت بأن لي ابنًا اسمه نضال، وبعدها علمت بخبر حمل زوجتي .

- بماذا حلمت؟ .

- برجلُ أربعيني مرتديًا بذلة ما و..

- حسنًا.. حسنًا يا عزيزي..

وكأنها والآن وبعد كل هذا الزمن علمت مَن أرسل الكتاب إلى عبدالله ، مفاتيح الكتاب *NMA* الأحرف الثلاثة لنضال وأبيه وجده.. لم يُفتح أحد المفاتيح إلا ببصمة عبدالله ، والقلادة الذهبية .. القلادة؟ ..

أخرجتها من حقيبتها، تحمل أول حرف من اسم عبدالله..

- أهناك شيء أماه؟ .

- لا يا عزيزي .

علّقتها بملابس نضال، طبعت قُبلة على بشرته الناعمة.. همست إليه وكأنه يفهمها:

مات جدُك وهو يصنع لك العسل.. والآن يمكنك تذوقه...

تمت

١٣/٩/٢٠١٩م

****

نحن أمّة قُتل داخلها فضول المعرفة

لأي الأسباب أنت هُنا؟ .

تَفكّر ..

****

جدول المحتويات

shams_andromeda 1